

الأكاديمية

مجلة

أكاديمية المملكة المغربية

2

جمادى الأولى 1405 فبراير 1985

محمّد بن حَدُّو

سفير السلطان مولاي إسماعيل لدى الملك شارل الثاني
وأول مغربي ينتسب للجمعية الملَكية الإنجليزية
1093 هـ = 1682م

عبد الهادي التازي

ظهرت الدولة العَلَوية عام 1050 هـ = 1640م والمغرب على حال من التبدد، تجلَّى في أنه لم يعد مغرباً واحداً، ولكنه عدد من المغارب ! فإلى جانب بقايا الدولة السَّعْدية التي كانت مَا تزال تتشبث ببعض الأطراف في البلاد، نجد إمارة الدِّلاَئيين تُهيمن على فَاس ونواحيها، بينما نجد الحاج كَرُّوم ينشيء له حكومة بمرَّاكش وجهاتها، وكان أبو حَسُّون يتولى إمارته في إيلِيغ، وكان الخضِير غَيْلاَن يتزعم بلاد الهَبْط (تِطْوان والقصر الكبير...)، وكان أعْرَاس يستأثر بحكم الرِّيف في حينٍ ينساب فيه النفوذ التركي في بعض نواحي بَنِي يَزْنَاسَنْ.

يضاف إلى كل هذه الزعامات الإقليمية، الوجود الإسباني والبرتغالي والأنجليزي في طائفة من الثغور المغربية في الغرب والشمال والجنوب. ولقد كان في صدر تلك الثغور طَنْجَة التي آلت إلى الأنجليز بسبب أن مَلِك البرتغال خْوَان السادس، لما صاهر عام 1072 هـ = 1661 م ملك إنجلترا بأُخته، جهَّزها في جملة ما جهزها به بمفاتيح طَنْجة التي كانت تحت هيمنته.

ولما كان المبدأ الذي قامت عليه دولة العَلَويين هو تحرير البلاد وتوحيد كلمتها، فقد رأيناها تقوم أحياناً بتدخلات عسكرية وأحياناً أُخرى تقوم بمحاولات دبلوماسية من أجل إشعار المحتلِّين بضرورة الرحيل عن البلاد.

ومن هنا انطلقت سلسلة من الغارات المغربية على طنجة، تمخضت عن عدد من القتلى والجرحى والأسرى، الأَمر الذي دعا لَنْدَن إلى القيام بمحاولةٍ لعقد اتفاقية سلاَم مع السلطان مولاي إسماعيل، حيث توصل هذا الأَخير برسالة ينعته فيها العاهلُ البريطاني بأَعظم النعوت ويستأذنه في إرسال سفير للتفاوض.

وبهذه المناسبة جمع السلطان أَعيان البلاد وعلى رأسهم قاضي القضاة، والقائد عمرو بن حدُّو قائد مدينة القصر الكبير من أجل استمزاج الرأي.

ولم يلبث السفير الإنجليزي السِّيرْ جِيمْسْ لِيسْلِي (J.Leslie) أَن وصل إلى طنجة لهذا الغرض، حيث تمَّ في الأَخير التحاقه يوم 9 مارس 1681 بمدينة مَكْنَاس العاصمة صحبة الكُولُونيل كِيرْكْ (Kirke) من رجال حامية طنجة، وفي خفارة القائد عمرو بن حَدُّو والقائد علي بن عبد الله.

وقد جرت مراسيم الاستقبال الذي أعقبته سلسلة من المحادثات، انتهت إلى اتفاق على هدنة لفترة أربع سنوات، وعلى تحرير جملةٍ من الأسرى من الجانبين(1).

بيد أن تطبيق الاتفاقية اصطدم بعدد من المشاكل، فقد ظهر جلياً أن الحامية الإنجليزية كانت تهدف لربح الوقت من أجل تحصين مواقعها، كما أن فِداء الأسرى بدوره ظل محلّ نقاش.

ومن هنا تجدد التفكير في إرسال سفارة مغربية إلى إنجلترا لمفاتحة المَلك شَارْل الثاني في قضية طنجة، حيث اختار السلطان مولاي إسماعيل لرئاسة هذه البعثة القائد محمد بن حَدُّو الذي وصل إلى طنجة معزّزاً بوفد هام، استُقبل استقبالاً حافلاً على ما تذكره المصادر والتقارير الإنجليزية.

وعلى العادة في مثل هذا الحال، رأينا الكولونيل كِيرْك يرفع تقريراً إلى بلاده يحمل تاريخ 8 دجنبر 1681 يتضمن نبذة عن السفير ابن حَدُّو.

فمن هو يا ترى هذا الدبلوماسي الذي اختاره العاهل المغربي لهذه المهمة الدقيقة ؟

لم يكن لابن حَدُّو حظ مع المصادر المغربية، وهكذا فإن النقيب المؤرخ مولاي عبد الرحمن ابن زيدَان الذي خصص مخطوطته النفيسة «المَنْزَع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي إسماعيل ابن الشريف»، أفرد البابَ الثامن منها لعلائق مولاَي إسماعيل السياسية، والثاني عشر لوزرائه، والرابع عشر لذكر عُمَّاله، والخامس عشر لسفرائه

(1) G. Mouette : Histoire des conquestes de muley Archy... De Castries : Sources inédites, S.2 T.2 P.1

إلى الدول الأوروبية وغيرها[2].... ولكن كل تلك الأبواب كانت لا تحتوي على اسم محمد بن حَدُّو.

وقد استوقفت شخصيةٌ مغربية مؤرخَ تِطْوَان الشيخ محمد داود عندما قرأ عنها في مذكِّرات جُوهْنْ وِينْدُسْ (J.Windus)[3] فتساءل قائلاً : «فمن هو أحمد بن حَدُّو العَطَّار، هذا السفير المغربي ؟ ومن أين أصله ؟ ومتى كانت سفارته ؟ وفيما ذا كانت ؟ ومن ذَكَر ذلك من مؤرخي المغرب ؟ الله أعلم بكل ذلك[4] !

أما المصادر الأوروبية فقد اهتمت بابن حَدُّو على العموم، ولو أنها ظلت مضطربة في كتابة اسمه، وفي لقبه كذلك، وهكذا وجدنا أن جُوهْن وِينْدُسْ السالف الذكر، الذي ورد على المغرب في شتنبر 1720، صحبة السفير الإنجليزي سْتِيَوارْتْ، يذكره في مذكراته «رحلة إلى مَكْنَاس» في شتنبر عام 1720، على أنه أحمد بن حَدُّو العَطار، وهو الاسم الذي أعطاه كذلك وِيلْفْرِيدْ بْلُونْتْ (W.Blunt) في كتابه «الشروق الأسود»[5]، هذا بينما نَجد رُوثْ (Routh) يذكره في كتابه حول طنجة باسم محمد أُوحَدُّو (أو : ابن حَدُّو[6]) على نحو ما فعله رُوجَرْزْ (Rogers) في كتابه «تاريخ العلاقات الدبلوماسية الإنجليزية المغربية إلى عام 1900»[7].

---

2) ابن زيدان : المنزع اللطيف، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ج 525.

3) J. Windus : Journey to mequnez; the Refidence of prefen Amperor of FEZ and Morocco, London, MDCCXXV P. 135

4) داود : تاريخ تِطْوَان، 2، ص 83.

5) Wilfrid Blunt : Black Sunrise, 1951 P. 107 - 190

6) E. M. G. Routh : Tangier, 1912 P. 221, NOTE 1

7) P.G. Rogers : A History of Anglo - Moroccan Relations to 1900, London, Foreign and commons Wealth P.56

أما المصادر الفرنسية فإنها، إذا ما استثنينا بيلُّو (Pellow) في روايته التي تتحدث عن أحمد (Hamet) بن حدُّو العطار،[8] فإن «مصادر لَمْ تُنْشر لِتاريخ المغرب» (S.I.H.M) التي اشترك في تأليفها دوكاستري ودُوسِينيفَالْ ودوكوصي بْرِيسَاك والتي أحَالت عليه أكثر من مائة مرة، كل هؤلاء ركَّزوا على أن الاسم هو أحمد بن حدُّو العطار، ولو أنهم قالوا : إنه يسمى أيضاً في بعض الأحيان بمحمد حَدُّو[9].

وقد كان لزاماً أن نرحل إلى الوثائق الوطنية في لَنْدن (Public Record Office)، وكذا إلى أَرْشيف الجمعية الملكية (الأكاديمية) التي انتسب إليها ابن حَدُّو لنعرف عن حقيقة الاسم ثم لنتتبع نشاط الدبلوماسي المغربي هناك[10].

وهكذا عثرنا على بعض الرسائل الموجهة من السلطان مولاي إسماعيل إلى الملك شَارْل الثاني، وفيها ما كان يحمل تاريخ سادس ربيع الأول من عام 1095 = 12 يبراير 1984 ؟، وهي تتحدث عن قدوم محمد بن حَدّو إلى إنجلترا إرضاءً لطلب العاهل الإنجليزي.

وإلى جانب هذه الرسالة من سيّد البلاد نجد السفير ابن حَدّو يثبت اسمه في سجل الجمعية المَلَكية الإنجليزية بتوقيع محّمد بن محّمد بن حَدّو.

---

8) La relation de Thomas Pellow, une lecture du Maroc du 18e Siecle, Magali Morsy 1983

9) Les Sources inédites de L'Histoire du Maroc, 2e. Serie, T,I, 587 No 4 – 603 N. 3 – T. 2, 232, N 1. 260 – 261 et N 2 – 263 – 264 et N 3 – 280 et T 3 – 87, N 2, 155, 160 et N, 2 – 231 – 245 – N 2 269 et N 1 – 295 et N 4, N, 1 – 41 – 43 – et N 1 – 47 – 54 etc. V. 60 – 62 et N. 2 – 63 – 89 – 90 et n 3, 255 – 257 – 258 etc

10) نُعت ابن حَدّو أحياناً بالرِّيفي وأحياناً الحَامي أو التَّمْسَماني أو البَطوئي؟ دوكاستري، سلسلة 2، مجلد 2، ص 344.

يضاف إلى هذا خطاب موجّه من السلطان مولاي إسماعيل إلى هُولندا من مكناس بتاريخ 24 شتنبر 1691 حول المناوشات البحرية التي كانت تدور بين المغرب وهُولَندا، بسبب عدم وفاء القنصل الهولندي بالوعود التي قطعها على نفسه، وهذا الخطاب يذكر ابن حدّو على أنه محمّد وليس أحمد.

هذا إلى رسالتين اثنتين مرسلتين من باريس إلى المغرب بتاريخ 24 يبراير 1699، من السفير عبد الله ابن عائشة إلى أخيه عبد الرحمن يعهد إليه برفع تقرير إلى محمد بن حَدّو العطار[11].

وهكذا نجد أن كل المصادر المغربية المتّصلة مباشرة بابن حَدُّو تتحدث عنه على أنه محمّد وليس أحمد.

وقد كان مما أربك الكُونْطْ دُوكَاسْتري، وقبله كثيراً من الناس، وجودُ شخصية أخرى في هذه الأثناء تحمل اسم ابن حَدّو، وتتولى بدورها منصباً سامياً في الدولة، ويتعلق الأمر بالقائد الجديد للجيش المغربي أحمد بن حَدّو أخي القائد عمرو الذي عصف به الوباء، في أعقاب فتح مدينة المَعْمورة عام 1092 هـ = 1681 م، فعندما توفي القائد عمرو، تولّى أخوه أحمد رئاسة الجيش مستعيناً في ذلك بقريبه[12] باشا تِطْوان علي بن عبد الله، وكانت هذه هي المناسبة أيضاً التي عوّض فيها أحمد أخاه القائد في قيادة مدينة القصر الكبير قبل أن يُمسي حاكماً أيضاً على العَرَائش، وأن أحمد هذا هو الذي توجّه بخطاب بتاريخ 5 رمضان 1097 = 26 يوليه 1686 إلى القنصل الفرنسي بيرِيلْيِي (Périllié). وهكذا فقد التَبس عليهم القائد أحمد بالوزير محّمد. وربّما كان دوكاستري يستبعد أن يخاطب قائد «القصر» قنصل فرنسا مباشرة،

11) دوكاستري س 2، ج 5، ص 103/101/62/60.

12) يلاحظ أن القائد أحمد كان ينعت القائد علي بن عبد الله بالأخ، على سبيل التحبّب.

مع أنه، أي دُوكَاسْتري، أثبت مخاطباتٍ لقائد تطوان علي بن عبد الله إلى القنصل المذكور، بل وإلى لُوِيسْ الرابع عشر، فلِم لا يسوغ لقائد القَصْر ما ساغ لقائد تِطْوان[13] ؟

على أنّ ممّا زاد في أمر الارتباك، أن دُوكَاستري توفاه الله قبل أن يدرس الوثائق المتعلقة بالعَلَويين مع إنجلترا، بالرغم من أنه كان يُحيل عليها كما كان يحيل على الوثائق المتعلقة بالعَلَويين مع هولندا[14].

وحتى نتأكد مما قلناه، ينبغي أن نقارن بين التوقيعين : توقيع محمد بن محمد بن حدّو، الذي لم يقفْ عليه دُوكَاسْتري في أرشيف الجمعية الملَكية، وبين توقيع أحمد بن حَدّو[15] الذي أثبته في مجموعته.

13) دوكاستري، س 2، مجلد 1 فرنسا ـ المغرب ص 594.
داود : تاريخ تطوان، ص 254.

14) دوكاستري، س 2، مجلد 2 فرنسا ـ المغرب ص 282.

15) يلاحظ أن السفير ابن حدو أرخ وثيقته بالتعبير العربي ولو أنه جمع بين الشهر الشمسي والسنة القمرية. بينما نجد القائد أحمد يعطي التاريخ بما يسمى القلم الفاسي.

فمن هو محمد بن حَدّو المنعوت بالعَطّار ؟ لقد اصبحتُ بعد البحث الطويل أميلُ إلى الاعتقاد بأنه من بيت الشرفاء أولاد أعَطّار، وهم من السُّوس الأقصى، تدرجوا في الخطط السامية في الدولتين السعدية والعَلَوية. وقد كان واسطةَ عقدهم أبو عثمان سعيد بن إبراهيم الذي فوَّض إليه السلطان أحمد المنصور السعدي (992 = 1584) أمر السُّوس الأقصى حربياً وخَراجياً، والقائد أبو عثمان سعيد بن محمد بن حدّو أعَطار المتوفى قبل سنة 1131 = 1718 ـ 1719 عهد السلطان مولاي إسماعيل والقائد الحاج علي بن عبد الله أعطّار الأسَفِي الذي كان من المحظوظين لدى السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل، على ما تشهد به بعض الظهائر التي تحمل تاريخ 1159 = 1746[16].



وقع اختيار السلطان مولاي إسماعيل على محمد بن حدّو ليرأس البعثة الدبلوماسية التي كانت تضمّ أيضا مساعده الكاتب الحاج محمد الوَقّاش الذي يعتبر من الشخصيات البارزة في العهد الإسماعيلي، كما تضمّ مساعده محمّد الحافظ، إضافة إلى ترجمانٍ من أصل إنجليزي كان قد اعتنق الإسلام[17].

ولقد غادرت السفارة المغربية طنجة يوم تاسع دجنبر 1681 حيث وصلت إلى لَنْدن، ولم يلبث أن عيّن الملك شَارْل الثاني يوم 11 يناير 1682 موعداً للمقابلة في قصر وَايْتْ هُولْ (White Hall) الذي عرف من ذي قبل استقبال سفيرنا القائد جؤذَر بن

16) توجد بعض الأخطاء التي نعتقد أنها مطبعية وخاصة ما يرجع لتاريخ أيام الملك محمد الثالث... محمد بن أحمد العبدي الكانوني : «آسَفِي وما إليه قديما وحديثا» 1353 هـ مطبعة مصطفى محمد، صاحب المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ص 117 ـ 118، تبيين الأشراف للبَعْقيلي، ص 57

17) حول الوقاش، انظر دوكاستري، سلسلة 2، مجلد 4، ص 4، تعليق 1.

عبد الله من لدن شَارل الأول... ومن الصدفة أن نجد في القصر إحدى الشخصيات الشهيرة المعروفة في إنجلترا بتسجيلها للمذكرات واهتمامها باليوميات. ويتعلق الأمر بالسير جُوْهن إيفْلِينْ (John Evelyn).

فماذا قال إيفْلِين عن سفيرنا ؟

«لقد شهدت استقبال السفير المغربي[18] الذي لم يكن عدد مرافقيه كثيراً، ولقد استُقبل من لدن صاحب الجلالة في صالة الولائم، وحضر إلى كرسي العرش دون أن يقوم بأية إشارة من إشارات الإجلال والخضوع، فلم يطأطئ رأسه ولم يركع أمام الملك... وقد كان يتكلّم بواسطة الترجمان الإنجليزي الذي رافقه، وقد كان جميعهم يرتدي ملابس على الزيّ المغربي : قَفَاطِين ملوَّنة وأقمشة حريرية ذات أزرارٍ وعُرىً، وقد ارتدوا فوق كل ذلك «حَايْكاً» أبيض فضفاضاً بما فيه الكفاية، بحيث يغطّي الرأس والجسم... وقد جعل السفير على رأسه عمامة خفيفة. كانت أذرعتهم وسوقهم بادية، وكانوا ينتعلون أحذية على نحو ما يفعل الأتراك...

وقد امتازت عمامة السفير بأن أطرافها كانت موشاة بسلسلة من حبّات اللؤلؤ... وكنت أتخيل أن ملابس الرومان القدماء تشابه كثيراً العباءة التي يرتديها هؤلاء المغاربة... لقد كان السفير شخصية أنيقة وذا ملامح وسيمة، حَسَن المظهر، مُرهَف الحسّ، وعليه سمات التمدّن والتحضر. كانت هدايا السفارة المغربية عبارة عن أسَدَين وثلاثين نَعَامة وغير هذا من التحف المغربية، أما مفاوضاتهم فكانت تتركز على إرساء قواعد السلام. إن احتشاد الناس وجلَبَتهم (من أجل رؤية البعثة الدبلوماسية) كانت لا تطاق، حيث فشل ضبّاط المراسيم في المحافظة على النظام. وقد دهش الزوار

18) ذكرت حاشية هنا طبعة 1871 اسم (Hamet)

Memoirs illustrative of the life and writings of John Evlyn, Esq, F.R.S. London 1871 P. 431.

المغاربة في بادئ الأمر لأنهم لم يتعودوا رؤية مثل هذه الحشود[19] في مثل هذه المناسبات العامة ببلادهم، بل وحتى في أغلب المناطق التي توجد تحت السيطرة التركية...».

وفي مذكراته ليوم 24 يناير 1682 يقول إيفْلِين : «لقد كنت في هذا المساء صُحبة السفير المغربي في القاعة الفاخرة في بُورْتْسْمُوثْ (Portsmouth) حيث أقيمت مأدبة على شرفه من لدن الخليلة الفرنسية لشارل الثاني، قُدّمت فيها الحلويات وعزفت الموسيقى...»[20].

وقد كان سلوك السفير وحاشيته في أعلى درجات الاعتدال والانضباط. وقد اقتضى نظام التشريفات أن يُرتّب الجلوس أمام المائدة الطويلة على شكل بحيث تجلس سيدة بين كل اثنين من أعضاء البعثة. وقد كان من بين الحاضرين في هذه المأدبة أبناء المَلك غير الشرعيين، واقصد هنا - يقول إيفْلِين - لِيْدِي لِيشْفيلد (Lady Lichfield) وَسَاسِيكْسْ (Sussex) وَدُوقة بُورْتْسمُوثْ نِلّي (Nelly)، وغير هؤلاء من المحظيات... وكنّ جميعاً يتألّقن بما يتزيّن به من جواهر وبما يمتْزن به من روعة مظهرهن... بيد أن المغاربة لم يبد عليهم أنهم تأثروا بأي شيء مما رأوا، كما أنهم لم يعيروا انتباهاً للأثاث وما إليه...

---

19) لم تخل هذه التظاهرة من تسجيل بعض الحوادث الصغيرة، وهكذا وجدنا أن بعض الرّعاع يشتم السفير، الأمر الذي اعتذر عنه أحد الشعراء الإنجليز بما يمكن أن يترجم هكذا :
إن الإنسان الخبيث بمثابة قنينة الزجاج حسبما قال أرِيسْطو، إنما يكشف عما فيه وان الذين واجهوكم بالسوء ليسوا بالنسبة إليك إلا بمنزلة الهباء أمام الشمس لهذا فالرجاء منكم أن لا تعيروا بالاً لهؤلاء. ولا تسجلوا ما رأيتموه.

20) تذكر بعض المصادر الانجليزية أن ابن حَدُّو ربما شاهد عَرْض أوبرا Dido and Aeneas التي لحنها هِنْرِي پورسيل H. Purcell.

وقـد انصرفوا لتـذوّق مـا على المـائـدة، ولكن في أدب واحتشـام، وتنـاولوا قليـلاً من الحليب والمـاء، ولكنهم لم يتنـاولـوا قطرة من النبيـذ، واكتفـوا بتنـاول العصير والشّكُلاَط. كانوا يغضّـون من أبصـارهم فـلا يحـدقـون في السيّـدات بعيـونهم، ولكنهم يتحدثون بلطف. وقد اقتصروا على الإجابة عن الأسئلة التي توجّه إليهم بكل سياسـة وكياسة.

وعندما حان وقت الانصراف قـاموا مردّدين شكرهم للـدُّوقـة، ومعربين عن تَحِيتهم : بارك الله دوقة بُورْتْمُوث وابنها الأمير دُوق رِيشْمُونْدْ (Richmond).

ولما كان السفير يهمّ بالانصراف جاء الملك شارل الثاني وتحدث قليلاً إلى السفير، ولقـد اعتاد السفير المغربي أن يقصد في معظم الأوقات حديقة هَايْدْبَـارْكْ على صهوة الجواد الذي خصص له، حيث كان يقوم صحبة أفراد البعثـة ببعض ألعـاب الفروسيـة، لقـد كانوا يثبون بواسطـة خيولهم على الحواجـز، وكانت الخيـول تجري بهم بـأقصى درجـة، وكانوا أحيـانـا يقفون على ظهور هـذه الخيول وهي تجري بكامل السرعـة. وهم أثنـاء هذا يلعبون برماحهم في رشاقة وخفّة تفوق الوصف...

لقد خلفت أعمال الفروسية الجرّئية التي كان يقوم بها السفير في هَايْدْبَارْك تـأثيراً على رَسّـام القصر الملكي السّير كُودْفْرِي كنِيلِر (Godfrey Kneller) الـذي أخـذ للسفير رسماً وهو يمتطي صهوة جواده يمسك بالرمح، بينما يرفع الفرس قوائمه الأولى.

وقـد قـام السفير ـ يقـول إيفْلين ـ بـزيـارة المسـارح الإنجليزيـة حيث شـاهـد بعض المسرحيات الهزلية، إلا أن الملاحظ عليه أنـه لم يرفع الصوت بضحكـه عنـد المشـاهـد الساخرة، بل إنه كان يحاول الحفاظ على حيائه ورزانته فيخفي مثل تلك الحركات.

وقد قام السفير بزيارة أمكنة أخرى مثل كِمْبْرِدْج، والملاحـظ أن هـذه الزيـارات لم تكن تمر دون نشاط، ففي خلال زيارته لهذه الجامعة حضر مأدبة أقـامهـا على شرفـه نائب رئيس الجامعة وعمداء الكليات.



السفير أحمد بن حدُّو (الإذن بالنشر من مراقب مكتبة صاحبة الجلالة البريطانية، رقم PMT 4/1180/30 PT 12، 25 أبريل 1984)

وفي معرض مقارنة السفير المغربي بالسفير الروسي الذي كان يوجد آنذاك صدفة في مهمة للقَيْصر لدى ملك إنكلترا، قال إيفْلِين : «وباختصار، فإن سلوك السفير الروسي لدى البلاط كان سلوكا فضاً وخشناً، إذا ما قورن بهذا السفير المتمدّن».



وبعد الاتفاق على مشروع الاتفاقية المغربية الإنجليزية للسلام والتجارة يوم 23 مارس ـ 2 أبريل 1682، سجّلت زيارة السفير ابن حَدّو للَنْدن حدثاً من أبرز الأحداث التي لا يمكن للإنسان أن يمر عليها مروراً خاطفاً. ويتعلق الأمر بدعوة السفير لزيارة الجمعية الملكية، حيث حضر في صدر القوم رئيسُ الأكاديمية كْرِسْتُوفَرْ وْرِنْ (Ch.Wren).

وبالرغم من أن هذا الحدث قد غُطِّي من لدن الذين كانوا يتتبعون تاريخ المجتمع الانجليزي ممن كانت لهم حوليات أو يوميات أو ممن كتبوا عن تاريخ الجمعية الملكية التي انشئت عام 1660، أو حتى من رجال الصحافة (London Gazette) التي كانت تنشر أخبارها عن زيارة السفير ابن حدّو[21]... بالرغم من كل ذلك، فقد لاحظنا أن هناك اضطراباً حول تاريخ زيارة السفير المغربي للجمعية الملكية، فبينما نجدها عند معظم المتتبعين بتاريخ 26 أبريل، وجدناها عند إيفْلِين يوم 31 مايو، وهكذا كان لزاماً عليَّ أن أزور شخصياً مقرّ الجمعية الملكية[22]، حيث وجدت تاريخ الزيارة مُثبتاً بخطّ يد الدبلوماسي المغربي على هذا النحو :

21) Routh : Tangier P. 223 – 224 – 226
Wilfrid Blunt : Black Sunrise P. 193
PG. Rogers : A History... P. 58.

22) أرجو أن أغتنم هذه الفرصة لأداء شكري لزميلي الأستاذ المهدي بن عبد الجليل سفير المملكة المغربية لدى المملكة المتحدة، كما أشكر المساعدة التي لقيتها سواء في الأرشيف الوطني أو الجمعية الملكية أو الخزانة البريطانية.

«الحمد لله وحده، وَكتَب هذا الحرف خديم المقام العالي بالله محمد بن محمد بن حَدُّو العطار، وفي ستة وعشرين من يَبْرِيل عام ثلاثة وتسعين وألف»[23].

الحمد لله وحده
وكتب هذا الحرف
خديم المقام العلي بالله
محمد بن محمد بن حدو العطار
وفي ستة وعشرين من يبريل
عام ثلاثة وتسعين وألف

فهل تكررت زيارة السفير للجمعية الملكية مرتين ؟ مرة أولى للانتساب ومرة ثانية كانت للتوديع ؟

مهما يكن فإن الحضور المغربي في الأكاديمية الناشئة لم يكن حضوراً رمزياً بل إنه اقترن بخطاب استقبال من لدن جُوهْن إيفْلِين الذي اختير خصيصاً لهذه المهمة، كما أنه اقترن بعملية انتخاب ابن حَدّو عضواً شرفياً للجمعية، وكتابة اسمه في سجلّ الأكاديمية بالحروف العربية على نحو ما قدمنا. وقد قام أثناء هذا بتصفح المخطوطات

(23) يلاحظ أن الأكاديمية البريطانية أصبحت منذ الآن مزارة للدبلوماسيين الأجانب، ولهذا وجدنا أثراً لزيارة محمد بن علي البقولي بتاريخ 27 رجب 1138، سفير مولاي إسماعيل آخر عمره، كما وجدنا توقيعاً لوكيل وجاك طرابلس الغرب يحمل اسم قاسم أغا بتاريخ 18 جمادى الآخر عام 1141، جواب مركز دراسة جهاد الليبيين، دجنبر 1984.
داود : تاريخ تطوان 2، 105 ـ 106. Rogers P. 128.

التي توجد بالخزانة وخاصة منها المؤلفات العربية التي كان يوليها اهتماماً كبيراً. وقد قدم هذا العضو الجديد في الجمعية الملكية عرضاً علمياً ما يزال إلى الآن مشغلة الذين يعرفون عن ابن حَدّو من أمثال الزميل الأستاذ بُونْطِيكُورْفُو (G.Pontecorvo). كان البحث يروج حول ظاهرة غريبة : «بعض الناس كان دائماً أخرس باستثناء وقت الظهر»[24] (A certain person who was always dumb except at noon)

وقد استُدعي «الأستاذ» ابن حَدّو في أعقاب ذلك التكريم من لدن الأكاديمية إلى منزل أحد الأعضاء إِلْيَاس اشْمُول الذي قدم لابن حَدّو هدية مناسبة باسم الأكاديمية، كانت عبارة عن نظارة رفيعة للقراءة.

ويتحدث إيفلين[25] في مذكراته ليوم 19 يونيه عن مأدبة غذاء دعي إليها السفراء الذين كانوا يتواجدون في العاصمة على ذلك العهد. ويقارن مرة أخرى بين الدبلوماسي المغربي وبين الآخرين :

«لقد دعي سفراء الهند الشرقية، حيث إنه كان لدينا في لندن في ذلك الوقت السفير الروسي والسفير المغربي والهندي...، دعوا جميعا للغذاء عند سيدي اللُّورد جُورْج بيرْكِلي (G.Berekeley).

لقد ذهبتُ - يقول إيفلين - إلى حفل الضيافة لتقديم الاحترام للضيوف الواردين، كانوا ذوي طبع متميز وملامح خاصة، لقد تناولنا الغذاء على مائدتين كانتا تضمان السفراء والمترجمين، كانت جَلاَلِيبُهم من الحرير الفاخر المطرّز بالذهب، كانوا يحملون على اكتافهم خناجر ذات أغمدة منقوشة بأشكال ثعابين، أو رؤوس شياطين، مقابضها كأنها من صنع دمشق، ولم تكن معهم سيوف». وقد أراد إيفْلِين أن يفسر معنى وجود

(24 Thos Birch : History of the Royal Society, iv 144 1756 Routh : Tangier, P. 226

(25 The Diary of John Evelyn edited by E.S. De Beer, London 1959 P : 726 – 727

شخصية ثانية سامية إلى جانب السفير المغربي، فذكر أن ذلك كان تحسباً لما قد يطرأ لأحدهما في تلك الرحلة الطويلة... وكانت مناسبة ليقول عن الدبلوماسي المغربي الثاني إنه كان حاجّاً أي إنه قام بزيارة مكّة، وإنه كان يجعل على رأسه طربوشاً أقرب إلى الطربوش التركي أو بالحري إلى الشاشية العربية، هذا إلى «شَالٍ» من الصوف يلفّ عنقه، لقد كان لونه يضرب إلى السمرة، وكان بدوره عاري الساقين والقدَمين، ولكن عليه سِمة الرجال الأتقياء... كانوا جميعا يجلسون القرفصاء كجلوس الأتراك. وأحيانا كان جلوسهم على هيئة الرهبان والنساك... وتعبيراً عن الشخصية التي يتمتع بها الدبلوماسيون المغاربة، يلاحظ إيفلين أن أظافرهم كانت جدّ نظيفة، كذلك أسنانهم التي كانت تبدو جميلة إذ كانت تلمع تحت تأثير الاستعمال الدائم لمضغ نبات منتشر بالمغرب يحفظ الأسنان من التسوُّس.

لقد كانوا يتناولون أكلهم بأصابعهم اليمنى في إتقانٍ دون أن تقع منهم ولو حبة من الأرز أو قطرة من الطعام...

ويظهر أن إيفْلِين كوّن له صداقة متينة مع السفير محمد بن حَدُّو حيث وجدناه يسجل في يومياته بتاريخ 11 يوليه أنه قصد إقامة السفير المغربي للسلام عليه مرة أخرى، بيد أنه وجده قد ذهب مدعواً من لدن دُوق أَلْبِمارْل (Albemarle) إلى نْيُوهُولْ[26]...



وبعد هذا المقام الحافل في انجلترا وجدنا السفير يستعد للعودة إلى بلاده. لقد أمسى مثقلاً بالهدايا على ما تقول المصادر البريطانية. فعلاً لقد كان في جملة ما يصحبه من

26) The Diary P. 728

هدايا عربة فاخرة أهداها الملك شارل الثاني مع الجياد التي تجرها، هذا إلى الهدايا العسكرية من غبرة بارود وبنادق[27].

وبمناسبة تأهب السفير ابن حَدُّو للعودة إلى بلاده، قُدّمت إليه قصيدة من شاعر وصفته المصادر البريطانية «بأنه شخصية بارزة»، بالرغم من تعليقِ تلك المصادر على القصيدة بأنها من النوع العادي. لقد كانت تحتوي على عواطف طيبة نحو السفير، إذ كانت تتمنى له سفراً سعيدا وعوداً حميداً إلى وطنه :

«من أجل ذلك نتمنى لمعاليكم الصحة الطيبة.
والسلام والسرور والمزيد من الغنى !
والسفر الطيب والرياح المساعدة لسفينتكم،
وليحفظ الله موكبكم من حيوانات البحر الفاتكة
وليجنبكم الله سائر الأخطار التي نجا منها أولِيسْ !
إن شأنك ليجلّ أمام ذوي المجد من الناس،
وعندما ستصل إلى بلادك،
فإن النّفير والموسيقى وحتى الطبول
سترحّب بكم في أرضكم السعيدة
وسيأخذك الملك نفسه بيدك
مخاطباً إياك؛ بأعز الأوصاف : مرحبا بك !
لقد شعرتُ بالوحشة وأنت تغيب عني
وأن عودتك أدخلت السرور عليّ
وهكذا فبعد كرب الشتاء تشرق الشمس ![28]»

27) دوكاستري : س 2، مجلد 2، ص 264.

28) Wilfrid Blunt : Black Sunrise, London 1951 P : 194, 195

إن المهم في هذه القصيدة ليس أسلوبها ومحتواها ولكن الأهم فيهـا أن نجـد السفير ابن حَدّو يجيب تلك «الشخصية البارزة» عنها بقطعة أخرى وبـاللغـة الانجليزيـة أيضـاً، قال فيها السفير المغربي :

«لقد جئت وأقررت السلام مع ملك انجلترا
حيث كنا معاً مسرورين بكل شيء !»

(I'm come, I've made a peace with England's King
in which, we both were pleased in every thing).

☆ ☆ ☆

لقـد عـاد السفير ابن حَـدّو إلى طنجـة مـا بين الثـلاثين غُشت وتـاسـع شتنبر 1682 حسب رسالـة لسَـانْت أَمَـانس (Saint Amans) إلى سِنْيِلِي (Seignelay) من مَعْبر جَبَل طَارِق بتاريخ 24 شتنبر 1682. ومن طنجة سافر ابن حَدّو إلى مكنـاس حيث قـدم تقريره إلى السلطان مولاي إسماعيل.

☆ ☆ ☆

لقد أمعنت المصادر الأوروبية في تتبع أخبار ابن حَدّو بعد عودته إلى بلاده، وخاصة منذ أوائل نونبر 1682، وذهبت بهـا الافتراضـات إلى ترويج أخبـار مفـادهـا أن ابن حَـدّو يعيش ظروف امتحـان نتيجـة لوشـايـات ودسـائس حيكت للسفير من لـدن القائدين : أحمد بن حَدّو وعلي بن عبد الله السالِفَي الذِّكر، وهو الأَمر الذي تؤكـده رسـالـة من ابن حـدُّو أعطَّـار إلى لنـدن بتـاريـخ 26 شـوال 1093 = 28 أكتـوبر 1682..

وهكذا، وعلاوة على رسالة سَانْت أَمَـانس بتـاريخ 8 نونبر 1682 حول هـذا الموضوع بـالـذات، وجـدنـا الكولُونيل كِيرْك إلسـالف الـذكر يقول : «إن الخصوم السيـاسيين للسفير ابن حَدّو كانوا قد أرسلوا يهودياً للتجسس عليه في انجلترا، تسلّم لهـذه الغـايـة رشوة باهضة الثمن، وقـد عـاد اليهودي بتقرير ضـد ابن حَـدّو وضـد الوقّـاش وبقيـة

أعضاء السفارة، حيث كان ذلك سبباً في تغير السلطان مولاي إسماعيل على البعثة كلها...» واعتماداً على رسالة لاحقة من السلطان مولاي إسماعيل إلى شَارْل بتاريخ 6 ربيع الأول 1095 = 22 يبراير 1684 أي بعد تحرير طنجة، يظهر أن سبب المؤاخذة يرجع لكون السفير ربما كان طمَّع انجلترا بأمل بقائها في طنجة ! تقول هذه الرسالة : «وقدوم خديمنا محمد بن حَدّو كان زَزاً عليه[29]، وحيث طلبتُم منَّا وصول واحد من خدامنا إليكم وجّهناه لكم، ومنذ وصَلكم وفرِحتم به وتلقيتموه بملقى مليح كان يقول لكم : «نقضي لكم عند سيدي طلبكم وينعم عليكم». فحيث وصَلنا وذكر لنا ذلك، ها أنتَ سمعتَ ما وقع به وما صار له، فكل من قاولكم بشيء قبل هذا أو ذكره لكم فقد كذب عليكم...».

مهما يكن فقد تدخل الشرفاء والعلماء لدى السلطان مولاي إسماعيل لصالح السفير الذي لا تجهل علاقته الشخصية بولي العهد الأمير مولاي زيدان ابن السلطان مولاي إسماعيل، وهكذا أصبح ابن حَدّو من الرجال المحظوظين في البلاط.

والآن بعد أن رافقنا السفير ابن حَدّو في ذهابه إلى لَنْدن وحين عودته إلى المغرب، فماذا عن بقية أيامه إلى جانب السلطان مولاي إسماعيل بعد هذا الحادث ؟

إن كل الدلائل تشير إلى أن الرجل ظل خديماً للسلطان على الأقل لما بعد سنة 1722، أي إلى ما قبل وفاة السلطان مولاي إسماعيل بقليل.

وهكذا وجدناه بعد ذلك الحادث مباشرة يكلّف أواخر سنة 1093 = خريف 1682 بمهمة لا تقل حرجاً ودقة عن المهمة الأولى. فقد عُهد إليه بمهمة مفاوضة المبعوث

---

29) أي بالرغم عنه.

الفرنسي سَانْت أَمَانس (S. Amans) الذي أرسل من طرف لُوِيسْ الرابع عشر لمراجعة الاتفاقية التي كان أبرمها بباريس الحاج محمّد تميم بتاريخ 29 يناير 1682.

لقد كان على السفير الفَرنسي أن يذهب إلى الأطلس الكبير قريباً من إيمي انْتَانُوتْ، جنوب آيْتْ أورِيرْ حيث كان يقيم السلطان مولاي إسماعيل.

وقد مرت المفاوضات بفترات صعبة. فإن اختلاف وجهات النظر المغربية والفرنسية كان حجر عثرة في طريق تتويج المفاوضات بالنجاح المطلوب، الأمر الذي يفسر أهداف خطاب السلطان مولاي إسماعيل للملك فرنسا لُوِيسْ الرابع عشر بتاريخ 9 شعبان 1095 = 22 يوليه 1684 :

لقد وجدنا العاهل المغربي يشيد بترحيب الانجليز[30] بوصول خديمه لديهم ومعاملتهم له بكل ضروب الاحترام والتكريم والتشريف، وقد عاد من انجلترا «بألف بندقية وألف وستمائة قنطار من البارود ومائة وسبعة من الأسرى المسلمين اعتباراً لمقامنا» على حدّ تعبير الخطاب الإسماعيلي، لقد وفّوا بكلمتهم ونفذوا تعهداتهم.



وفي سنة 1691 سمعنا عن استقبال الوزير ابن حَدّو للقنصل الفرنسي جان اِيسْتِيلْ (Estell) بقصد الحديث إليه حول المواضيع ذات الاهتمام المشترك. وقد طلب إليه باسم السلطان أن يحضر له من فرنسا خمس غزلان واثنتين من أنثى اليحمور...

30) كان هذا الخطاب في اعقاب تحرير طنجة الذي تمّ في مهل ربيع الأول 1095 = يبراير 1684 حيث احتفل الشعب بعيدين : عيد المولد وعيد الجلاء.

لكنا قرأنا ـ وبالضبط في مذكرات السفير المذكور المكتوبة بسَلاَ بتاريخ 24 يوليه 1691 ـ أصداء عن امتحان جديد لمحمَّد بن حَدّو، وتعويضه بالقائد عبد الله بن حمدون الروسي.

ومن المهم أن نجد القنصل إسْتِيلْ في مذكرته يفرح بتعيين القائد الروسي مؤكّداً أنه كان يشجع على التفاوض في الوقت الذي كان القنصل يشكو فيه من الصخرة الشائكة التي كانت تقف في طريق المفاوضات الفرنسية المغربية، أنه ابن حَدّو الحاكم بأمره الذي كان يعتقد أنه قادر على كل شيء !

وبهذه المناسبة أخذ إسْتِيلْ يعدد مثالب ابن حَدّو وبأنه كان يقرض المال من المسلمين والنصارى واليهود ولكنه لا يرجع درهما لأحد، وأن المغاربة ضاقوا به ذرعاً فاجتمعوا، وتوجهوا للشكاية لدى السلطان، وكان الكل يتبارى أمام العاهل لفضح ما كان يحل به، وأضافوا إليه في شكايتهم أخاه «عليل ؟» الذي كان ينوب عنه في قيادة مدينة سلا[31].

لقد كان هذا الأخ على نهج أخيه في ابتزاز الناس وفي معاملتهم بعنف وقسوة وخاصة منهم التجار المسيحيين... وتنقل المذكرة أن السلطان مولاي إسماعيل غضب غضباً شديداً، ولكنه سلك كعادته المسلك الذي سبق له أن اتخذه عندما بلغه عن ابن حَدّو ما بلغه في أعقاب عودته من انجلترا.

---

31) دوكاستري : س 2، مجلد 4، ص 268، 312، 388.

وهكذا أحضر وزيره السابق ليتلقّى بنفسه الاتهامات الموجهة إليه. وبعد الاستماع إلى الكل، عزل السلطانُ ابنَ حَدّو وأعطى «قضايا البحر» للقائد الروسي الذي كان حاكما على مدينة فاس...

وتمضي المذكرة الدبلوماسية في حديثها عن هذا الامتحان الجديد لابن حَدُّو. ولكن فرحة خصوم ابن حَدّو لم تدم طويلا، فقد كانت ـ كسابقتها ـ قصيرة العمر، وهكذا، فلم تمض ثلاثة شهور فقط حتى عاد ابن حَدّو إلى مركزه، واستعاد نفوذه إلى جانب السلطان مولاي إسماعيل، واستمرت صلاته بولي العهد الأمير مولاي زيدان[32].

وقد عثرنا على رسالة موجهة إلى ابن حَدّو من القسّ الإسباني مانْويلْ دِي فِيرَالُوكُو (M. de Vairalugo) الذي كان يرعى مصالح إسبانيا بالمغرب، وكانت بتاريخ 12 شتنبر 1691 جواباً على رسالة الوزير ابن حَدّو بتاريخ 7 شتنبر حول الأسرى المغاربة الذين ورد بهم السفير المغربي محمد بن عبد الوهاب الغسّاني الذي وجهه السلطان مولاي إسماعيل إلى العاهل الإسباني كَارْلُس الثاني عام 1102 = 1690 - 1691[33].

ومن جهة أخرى وجدنا آثار رسالةٍ من السلطان مولاي إسماعيل محررة من مكناس بتاريخ يوافق 24 شتنبر 1691 موجهة إلى الولايات العامة بالبلاد المنخفضة حول ما تناهى إليه من خديمه ابن حَدّو عن الغشّ المرتكب في البضاعة الموجهة من هولندا إلى المغرب[34].

32) دوكاستري : المجلد 3، ص 384.

33) دوكاستري : سلسلة 2، مجلد 2، ص 395.

34) حرف اسم محمد ابن حدّو عند الترجمة إلى أحمد (Hamet) دوكاستري : المجلد 2، سلسلة ثانية، ص 401.

ولقد وجدنا الوزير ابن حَدّو سنة 1693 يكلّف من طرف السلطان مولاي إسماعيل بمفاوضة السفير الفرنسي الشهير سَانْت أولُون (Saint Olon) الذي أرسل من طرف لُويس الرابع عشر باقتراح من السلطان مولاي إسماعيل الذي كان يعتبر أن القنصل الفرنسي بالرباط إيسْتِيلْ (Estell) أقلّ مستوى من ان يفاوض المخزن... ولعل هذا الانطباع عن إسْتِيلْ كان صادراً عن تقرير من الوزير ابن حَدّو عن شخص ايسْتِيلْ.

وقد استقبل السفير الفرنسي بمكناس بمحضر القائد ابن حَدّو العطار «المحظوظ الكبير» للشريف[35] الذي عهد لوزيره المذكور أن يناقش بنود الاتفاقية الفرنسية المغربية مع السفير الفرنسي حسب إفادة سانت أولُون نفسه.

ومن الطريف أن نسمع هنا أن السفير الفرنسي ألقى أمام السلطان مولاي إسماعيل خطابا باللغة الفرنسية، عرّب فيما بعد إلى اللغة العربية، وأن السلطان عندما أجاب السفير أُولُونْ نوّه بموقف ملك فرنسا إزاء سلطان تركيا، ووعد بأنه سيكون على استعداد لمساعدة فرنسا بالعتاد والرجال ما دامت في صف المسلمين.

بيد أن الرجلين لم يصلا إلى حلّ فيما يتعلق بشروط افتداء الأسرى وتبادلهم كذلك، وقد قرأنا في مذكرة لإيسْتِيلْ من تطوان بتاريخ 11 غشت 1693 أن اليهودي مَيْمُرَان (Maïmouran) نصح ايسْتِيلْ بشراء القائد ابن حَدّو بالمال[36] ! لكن المحاولة باءت بالفشل. فقد أبى الوزير كل المساومة، ثم تنصل نهائياً من متابعة المفاوضات مع المبعوث الفرنسي، كما قرأنا عند وصول سَانْتُ أولُون إلى تطوان في طريق عودته إلى فرنسا أنه أخبر القائد علي بن عبد الله بفشل المفاوضات نتيجة لتصلُّب ابن حَدّو،

35) يروي شاهد عيان أن السلطان مولاي إسماعيل عندما استقبل السفير الفرنسي سانت أولُونْ كان ذلك بحضور بعض القواد إلى جانب الوزير ابن حدو العطار.

36) دوكاستري : مجلد 5، ص 471.

الأمر الـذي جعل القـائـد علي بن عبـد اللـه يُقسم لَينتقمنّ من ابن حَـدّو. لقـد كان الجانب الفرنسي يعتقد أنه راح ضحية تنافس ابن حَدّو مع علي بن عبد الله. (رسالـة 30 يوليه 1693 من إيستيل إلى بُونْتْشَارْطْرَانْ (Pontchartran)[37].

لقد قرأنا عن حملـة سـانت أولُون على ابن حَـدّو في جل مـذكراتـه، فهو الـذي يقول للانجليز عندما يجتمع بهم، إن أمّه انجليزية، ولذلك فهو صـديق لهم، ويقول للفرنسيين عندما يختلي بهم إن أمه فرنسية ولـذلـك فهو صـديق لهم، والواقع يشهـد أنـه صـديق فقط للمال ! ولا يرتاح إلا إذا ألحق ضرراً بالآخرين. «إن نظراته الحادة والنـافـذة ـ يقول أولُون ـ كانت تعكس طريقته في معاملته للناس، إنـه خبيث ومـاكر وفضولي يتدخل في الكبيرة والصغيرة، الأمر الذي يجعل المغاربة يخشون غائلتـه ويتقون شره، بل ويشتمونه في مجالسهم الخاصة».

وبعد أن تعرض ابن حَدّو لامتحان خطير ثالث عام 1694 كاد بسببـه أن يختفي[38] إلى الأبد، تشفع فيه قواده وعاد إلى أقوى مِمَّا كان عليه.

وحسب مذكرات إيسْتِيلْ بتاريخ 30 مـايو ـ 24 غشت 1696، فـإن محمـد بن حَـدّو قام بعمليةٍ وطنيةٍ جريئة حيث وجدنـاه يجهز على بعض القراصنـة العثمـانيين الـذين وردوا من الجزائر على المعمورة للتجسس. فقد استطـاع ابن حَدّو بوسائلـه أن يقتحم عليهم المركب وينزع قلوعـه ويعطل حركتـه[39] قبل أن يلتحـق بمكنـاس لإطـلاع

37) حول التنافس المستمر بين محمد بن حدو وبين علي بن عبد اللـه، أنظر دوكاستري : مجلـد 4، ص 127 ـ 131.

38) نعلم أن ابن حدو استهدف ثلاث مرات لوشايات خصومه، أولا عـام 1682 ثم 1691 وكانت الثـالثـة في خريف 1694 ـ دوكاستري : مجلد 4، ص 291 ـ 298 ـ 299.

39) دوكاستري، مجلد 4، ص 415 ـ 419.

السلطان مولاي إسماعيل على الحركة. وقد لاحظت التقارير الدبلوماسية زحفه إلى سُوس في صيف 1697 لقمع حركة تمرد شبت هناك، وكان يجر مع الجيش بعض المدافع لإسكات تلك الحركة[40].

وقد تحدثت تلك الوثائق أيضاً عن تكليف السلطان مولاي إسماعيل لابن حَدّو وابن عائشة في شتنبر 1699 بقصد المركب الفرنسي لاَدُوفِينْ (La Dauphine) للتفاوض سراً مع البعثة الفرنسية[41].

وليس ببعيد عندي أن يكون ابن حَدّو «رافق» ولي العهد الأمير مولاي زيدان عندما قصد عام 1114 = 1702 بأمر من والده السلطان مولاي إسماعيل، الجنوب المغربي للقضاء على تمرد ولده محمّد العالِم الذي كان اقتحم مدينة مُرَّاكش عنوة.

كما وليس بعيدا عندي كذلك أن يكون لابن حدّو ذِكر بمناسبة وفاة الأمير زيدان الذي نقلت جثته من تَارُودَانْت إلى مكناس عام 1119 = 1707.

وقد سجلت السفارة الانجليزية برئاسة سْتِيوَارْتْ في مكناس عام 1722 أن محمد بن حَدّو العطار كان في استقبال السفارة المذكورة. وقد كانت تعرفَتْ عليه أثناء مقامه في لَنْدن، بل نحن على يقين أنه، أي ابن حَدّو، كان على رأس المفاوضين في أثناء وجود هذه السفارة في مكناس[42].



40) دوكاستري سلسلة 2، مجلد 4، ص 407، 410.

41) دوكاستري سلسلة 2، مجلد 5، ص 398.

42) د. التازي : مراسيم تقديم أوراق الاعتماد على عهد مولاي إسماعيل، دعوة الحق مارس 1969.

ومنذ الحديث عن ابن حَدّو من لدن السفارة الانجليزية اختفى ذكر هذه المعلَمة الشامخة التي كان لها - على ما قلنا - دور أي دور. في التاريخ الدولي لبلادنا...

لقد توفى السلطان مولاي إسماعيل بعد خمس سنوات من هذا التاريخ، ولم نَدْرِ هل امتد العمر بابن حَدّو العطار فيما بعد ؟

هناك حدث بارز وقع أيام السلطان مولاي عبد الله الذي خلف والده السلطان مولاي إسماعيل. ويتعلق الأمر بالزلزال الذي يحمل في التاريخ اسم زلزال لِيشْبُونَة (26 محرم 1169 = 1 نونبر 1755)، والذي ربما كان من أسباب اختفاء الوثائق المغربية عن هذه الشخصية.

حَوْل مؤرِّخ أَندلسي مجهول

محمد ابن شَرِيفة

ظهر منذ شهور السِّفْر الثامن من كتاب «الذيل والتكملة» لابن عبد المَلِك المرّاكُشي، وبظهوره تم طبع ما هو موجود الآن من هذا الكتاب الذي يُعتبر أكبر معجم قديم في أعلام الأندلس والداخلين إليها حتى آخر القرن السّابع الهجري. وهو يمثّل أحد الجهود المغربيّة الضخمة القديمة في احتضان التراث الأندلسي وخدمته، هذه الجهود التي ما تزال مبذولة وموصولة إلى يومنا هذا.

وليس من موضوعِي الحديث عن قيمة كتاب ابن عبد الملك ودوره في إغناء تاريخ الأندلس هنا، ويمكن الرجوع في هذا إلى المقدّمة التي وضعتُها بين يدي السِّفر الثامن[1]، ولكني سأتحدّثُ عن مؤرخ أندلسي مجهول يرجع الفضل إلى ابن عبد المَلِك

1) انظر مقدمة السّفر الثامن من «الذيل والتكملة»، تحقيق الدكتور محمد بنشريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربيّة، الرباط، 1984.

في حفظ ذِكره، وبقاء اسمه وأثره، وأعني المؤرخ أبا محمد عبد الله بن عبيد الله الحُكَيِّم. وأرجو أن يكون في هذا المقال ما يلقي ولو بصيصاً من نور على هذه الشخصية التاريخية المجهولة، وأنا أعترف أن المادة التي أمكن الحصول عليها في الموضوع مادة متواضعة بل إنها هزيلة.

من هو هذا المؤرخ المجهول المدعُو بالحُكَيِّم ؟

لقد ترجم الزُّبَيْدِي في طبقات النحْويين واللُّغَويين لهذا الرجُل فقال : «الحُكَيِّم الأزدي : هو عبد الله بن عُبيد الله، كان ذا حظٍّ من عِلم اللّغة وحفظ للأخبار والأنساب، وكان يقرض الشِّعر الحسَن، وكان ذا تعصّب شديد للقحْطانية.

وتُوفّي منتصفَ شهر رمضان سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة[2].»

وكان ينبغي أن يترجم له ابن الفَرضي، فهو على شرط كتابه، وقد ترجم لعدد من طبقته نقلاً عن الزُّبَيْدي مع زيادات من عنده أحياناً. لكن ابن الفَرضي لم يفعل، ولا نعرف السبب في إعراضه عن ذكره وعدم نَقْله عنه. ولما أغفله ابن بَشْكوال كذلك، فقد استدركه عليهما ابن الأَبَّار وترجم له في التكمِلة، لكنها ترجمة مطابقة لترجمة «الطبقات» المذكورة، ولا شكّ في أن ابن الأبّار نقلها عن الزُّبَيْدي وإن لم يذكر ذلك، والإضافة الوحيدة التي أتى بها ابن الأبّار هي ضبط شهرة الرجل هكذا : «يقال له الحُكَيِّم بضمّ الحاء وتشديد الياء»[3].

وعلى أي حال، فالترجمة في المصدرين المذكورين ترجمة موجزة لا تحدّد بلداً ولا تؤرّخ ولادة ولا تعدّد شيوخاً ولا تلاميذَ ولا تذكُر تأليفاً ولا تسرد نماذج من «الشعر

2) طبقات النحويين واللّغويين للزُّبيْدى، ص : 327، تحقيق الأستاذ أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1954.
3) التكملة لابن الأبّار، ص : 783، نشر عزّت العطّار، القاهرة، 1956.

الحسَن» الذي كان يقرضه الرجل، وهي تكتفي بالإشارة إلى معارفه في اللّغة والتاريخ والأدب، وتنعَته بالتعصّب الشديد للقحطانية، ولا عجب في هذا فهو ينتسب إلى الأزد التي فخر بها حسّان بنُ ثابت فقال :

يا بنت آل مُعاذٍ إنّي رجلٌ — من معشرٍ لهم في المجد بُنْيَانُ
إمّا سألت فإنّا معشرٌ نُجُبٌ — الأزْدُ نَسَبَتُنا والماءُ غسَّانُ

وقال :

فمن يكُ عنّا معشرَ الأزدِ سائلاً — فنحن بَنُو الغوثِ بن زيدِ بن مالِكِ
وزيدِ بن كهلانَ الذي نالَ عزّةً — قديماً دَراريَ النجوم الشّوابِكِ
إذا القومُ عدّوا مجدهُم وفعَالهم — وأيامَهم عند التقاءِ المناسِكِ
وجدْنا لنا فضلاً يقر لنا به — ـ إذا ما فخرنا ـ كلٌّ باقٍ وهالِكِ

وقال أيضا :

ألَمْ ترنا أبناء عمرو بن عامرٍ — لنا شرفٌ يُرْبي على كُلِّ مَرْتَقِ
رسا في قرار الأرْضِ ثم سَمَتْ لَهُ — فروعٌ تُسامي كُلُّ نَجْمٍ مُحَلِّقِ
ملوكٌ وأبناءُ الملوك كأنهم — سواري نجوم تالياتٍ ونفَقِ
كجفنةَ والقَمْقام عمرو بن عامرٍ — وأبناءِ ماءِ المُزْن وابْنَيْ مُحَرِّقِ
وحارِثةَ الغِطْريفِ أوْ كابن مُنْذرٍ — ومثلِ أبي قابوس ربِّ الخَوَرْنَقِ[4]

4) الإنباه، على قبائل الرواه لابن عبد البرّ، ص 107، نشر مكتبة القدسي، 1350.

ولقد كانت العصَبيات القَبَلية والصراعات الدمَوية التي عَرفتها جزيرة العرب والبلدان المنتوحة ـ ومنها الأندلس ـ ما تزال عقابيلها موجودة في عهد الحُكيِّم، وكانت آثارها تنعكس على الشِّعر، فقد ذكر الزُّبيْدي في الطبقات أن حَرْشَن بن أبي حَرْشَن «كان شديد التعصب للقحطانية، ودارت بينه وبين أَحمد بن نُعَيْم السُّلَمي في ذلك أهاج»[5].

وقد ختم ابن حَزم في الجمْهَرة كلامه عن قبائل العرب بفصل عنوانه : «الكلام في مُفاخرة قَحْطان وعَدْنان» بدأه بفضل القحطانية ولكنه ختمه بتقديم العدنانية، ثم قال : «وأما في الحقيقة فلا فخر إلاّ بالتقوى. وما عدا ذلك فخطأ ﴿**إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[6].

ونقل المقّري في النّفْح ما يلي : «والقحطانية هم المعروفون باليَمَانية، وكثيراً ما يقع بينهم وبين المُضَرية وسائر العدنانية الحروب بالأندلس كما كان يقع بالمشرق وهم الأكثر بالأندلس والمُلْك فيهم أرسخ».

ومهما يكن من أمر، فربّما كان لتعصّب الحُكيِّم للقحطانية أثرٌ فيما وقع من تعتيم على شخصه وكتابه.

ومن الغريب أن الزُّبَيْدِي الذي عاصر الرجل، وكان في طبقة تلاميذه لم يذكر له تأليفاً، واقتصر على تقرير حفظه للأخبار والأنساب.

ومن الغريب كذلك عدَم وُرود أي إشارة إلى الحُكيِّم أو تأليفه في الأقسام الموجودة المنشورة من «المقتبس»، ومن الممكن أن يكون ذِكره في وفيات سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، وهي في سِفر من الأسفار المفقودة.

---

5) الطبقات : 287.

6) الجمْهرة : 487 ـ 490، تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، 1962.

كما نستغرب عدم إشارة ابن الأبّار إلى تـأليف الحُكيِّم وعـدم نقلـه عنـه في مؤلفـاتـه التاريخية كالتكملة والحلّة السّيراء وغيرهما، وقـد نفسر هـذا بـأنـه لم يقف على تـأليفـه الذي سنتكلّم عليه.

ولولا أن المؤرخ المغربي ابن عبد المَلِك المرّاكشي اطّلع على كتاب «الحُكيِّم» ونقل منـه وذكر اسمه ما عرفنا شيئا يذكر عن هذا الكتاب، ولا أن صاحبـه يُعـدُّ من المؤرخين النّسابين في الأندلس، فقد اوْرد مؤلف «الذيل والتكملة» في السّفر الأول الذي حقّقتـه منذ سنوات كلمة عن هذا الكتاب، وذلـك أثنـاء ترجمـة الفقيـه القـاضي النحْوي ابن مَضَاء القُرطبي وخلال الكلام على نسبه، قال : «فقد ذكر الحُكيِّم عبد اللـه بن عُبيـد الله ـ توفي منتصف رمضان أحدٍ وأربعين ـ في كتـابـه الـذي ذكر فيـه الخلفـاء، ومن تنـاسَل منهم بـالأنـدلس، ومن سـائر قريش، ومواليهم وأهـل الخـدمـة والتصرُّف لهم، ومشـاهير العرب الـداخلين إلى الأنـدلس من المشرق من غير قريش، ومـواليهم، ومشاهير قبائل البربر الذين احتلّوا الأندلس، ورفعه للناصر أبي المطرّف عبـد الرحمن بن محمّد سنة ثلاثين وثلاثمائة»[7].

إني أعتبر أنّ هذه الفقرة الاعتراضية كشْف تاريخي قيّم، فقد جعلتنا نقف على محتوى أصلٍ من أُصول تاريخ الأندلس ومُدوَّنة من مدوّناته الأُولى، كما جعلتنـا نزداد معرفـة برائد من رُوّاد هذا التاريخ وواحد من رجاله المبكّرين، أغفل ذِكر كتابه القـدمـاء، ولم يبلغ خبره المؤرخين المحدّثين الذين كتبوا في علم التاريخ والمؤرخين الأندلسيين.

يبدو من محتوى كتاب الحُكيِّم أنه مِثل كتاب أحمـد الرّازي في أنسـاب مشـاهير أهل الأندلس الذي مدحه ابن حَزم وذكر أنه يقع «في خمسة أسفار»[8].

7) السّفر الأول من «الـذيل والتكملـة»، ص : 213، تحقيق الـدكتـور محمد بنشريفـة، دار الثقـافـة، بيروت، 1959.

8) رسائل ابن حزْم 2 : 184، ونفح الطّيب 3 : 174، تحقيق الدكتور إحسان عباس.

ولسنا نعرف لماذا لم يذكر ابن حَزم كتاب الحُكيِّم مثلما ذكر كتاب الرّازي مع أن الكتابين في موضوع واحد والمؤلِّفين من عصر واحد وطبقة واحدة في السّنّ والعِلم، إذ تُوفي الرّازي في رجب سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وتوفي الحُكيِّم قبله بثلاث سنوات كما رأينا، وأما من حيث المستوى العلمي فإننا نلاحظ أن الحُكيِّم كان نظير الرّازي، وثمة تماثلٌ بين أدواتها في ترجمتيهما المتجاورتين في طبقات الزبيْدي - وهي مصدر جميع الذين ترجموا للرجُلين فيما بعد - بل إن الزبيْدي الذي أدركهما وصف أحمد الرازي بحفظ الأخبار بينما وصَف عبد الله الحُكيِّم بحفظ الأخبار والأنساب، فكيف كتبت الشهرة لما ألف الرازي في الأنساب وسحبَ ذيلُ الخمول على مؤلف الحُكيِّم.

هل كان ذلك لتعصّبه الشّديد للقحطانية كما وصفه الزبيْدي الذي هو مَذْحِجي قحطاني ؟، أم أنّ كتاب الرازي كان أكثر إتقاناً وتوثيقاً فاعتمده الناس واستغنوا به عن كتاب الحُكيِّم ؟، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون أمر حظّ - وحظوظ الكتب كحظوظ البشَر متفاوتةٌ - فمن المؤلّفات ما يرزق القبول والاستحسان، ومنها ما يكون نصيبه الإهمال والنسيان.

ومهما تكن الأسباب فقد ظلّ كتاب الحُكيِّم في الأنساب منسياً طَوال ما يقرب من أربعة قرون إلى أن وجدنا خَبره لأول مرّة عند ابن عبد الملك الذي كان واسع الاطلاع على ذخائر المكتبة الأندلسية، كثيرَ الوقوف على نوادرها وشواردها حتى لقد تيسّر له في هذا ما لم يتيسّر لغيره. وذلك بفضل بحثه الطويل وتنقيبه الكثير عن المخطوطات وقُربه من خزانة الموحِّدين الكبرى في مرّاكش التي انتهى إليها كثير من خزائن الأندلس والمغرب.

لقد استعمل ابن عبد الملك كتاب الحُكيِّم وانتفع به في تحقيق أنساب بعض من ترجم لهم، وبلغت إشاراته إليه في الأسفار الموجودة ستّ مرّات، وقد يكون أشار إليه مرّات أُخرى في الأسفار المفقودة.

في الإشارة الأُولى من هذه الإشـارات ذكر مؤلّف «الـذيل والتكملـة» ـ كما رأينـا ـ اسم الحُكيِّم واسم أبيه وشهرته وتاريخ تقديمه كتـابـه إلى الخليفـة النـاصر وتـاريخ وفـاتـه ومحتوى كتابه.

وفي إشارة ثانية عرّفَنا بكنيته فقـال : «وقـد ذكر أبو محمّـد بن عُبيـد اللـه الحُكيِّم[9]»، بينما اكتفى في الإشارات الأُخرى إليه بشهرة الحُكيِّم.

ونحن نقدّر أن ابن عبد الملـك عقـد لهـذا المؤلف ترجمـة في «الـذيل والتكملـة» وذلـك باعتباره ممّن يستدرك على ابن الفَرضي وابن بَشْكوال، كما فعل ابن الأبّار، ونرجّح أن تكون ترجمة الحُكيِّم عنـد ابن عبـد الملـك أوسع من الترجمـة التي وردت في «التكملـة» والتي رأينـا أنهـا مـأخوذة من طبقـات الـزبيْـدي، ونحن نعرف بـالمـوازنـة بين تراجم «التكملـة» ونظـائرهـا في «الـذيـل» أن هـذه تشتمـل في الأغلب الأعمّ على مـزيـد من المعلومات والتفصيلات.

ونظن أن ابن عبد الملك وجد في كتاب الأنسـاب للحُكيِّم الـذي كان بين يـديـه مـا يتوسع به في ترجمة الرجُل. ومع الأسف الشّـديـد، فـإن هـذه الترجمـة لم تصل إلينـا، ذلـك أن النسخـة الـوحيـدة من السِّفر الرّابـع من «الـذيـل والتكملـة» المحفـوظـة في «الإسْكُورْيَال» هي نسخة ناقصة ومبتورة. والمفترض أن ترجمة عبـد اللـه الحُكيِّم هي من بين تراجم العبَادِلة التي ذهب بها البتر في النّسْخَـة المـذكورة، ومن سوء الحـظ أن السّيُوطي الـذي ينقل أحيـانـاً ـ ولـو بتصرّف ـ تراجم بعض اللّغـويين عن ابن عبـد الملك في بُغية الوُعَاة لم تَرد عنده ترجمة الحُكيِّم.

وفي انتظار ظهور الترجمة المشـار إليهـا عنـد ابن عبـد الملـك أو ظهور غيرهـا، تبقى المعلومات التي ذكرناها حول الحُكيِّم هي كلّ ما لدينا الآن.

---

9) الذيل والتكملة 6 : 208، تحقيق الدكتور إحسـان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، 1973.

هذا وعندنا من معاصري الحُكيِّم النسّابة شخص اسمه أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل القرطبي يعرف بالحُكيِّم أو الحَكِيم، وهو نَحْوي أدب الحكم المستنصر وتوفي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة عن ثمانين سنة[10]، ولا نعرف هل له صلة قرابة بنسابتنا أم لا، وقد ترجم له الزبيْدي وعَنْون ترجمته كما عنون ترجمة عبد الله بشهرة الحُكيِّم، ولم يضبطها في الحالتين، وترجم له ابن الفرضي كذلك بدون ضبطٍ للفظ الشهرة، ولكنها وردت مشكولة بالحركات في نسخة السِّفر السّادس من «الذيل والتكملة» الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس[11]، حيث شُكلت كلمة الحُكيِّم شكلاً واضحاً بضمّ الحاء وفتح الكاف وكسر الياء المشدّدة مع صورة ح تحت حرف الحاء ووضعَ كلمة صحّ فوق الكلمة، وهذا من منتهى الضبط والتحقيق في هذه النسخة المَرْوية عن المؤلّف بسَند تلميذه الضابط التجِيبي صاحب البرنامج والرّحلة المعروفين.

يظهر إذن من اشتراك هذين الرجُلين المتعاصرين في هذه الشهرة أنهما من أسرة واحدة، وأن بينهما قرابة، ولكننا لا نتبيّن وَجْهَها ولا درجتها لأن نسَب كلّ واحد منهما يقف عند والده.

وقد كانت أسرة الحُكيِّم القرطبية مُقرّبة من عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر، فعبد الله الحُكيِّم النسابة المؤرخ موضوع مقالتنا رفع كتابه إلى الناصر حسب كلام ابن عبد الملك السّالف الذكر، وقريبه - فيما نقدر - الحُكيِّم النحوي له شعر في مدح الناصر، وَرَدَ في المقتبس[12]، وكان مؤدّباً لولده الحكم، ومن أجل هذا

10) توجد ترجمته في طبقات الزبيْدي : 300 - 301 وابن الفرضي 2 : 54 وطبقات صاعد : 75 والوافي بالوفيات 2 : 210 ومعجم الأدباء 18 : 30 وإنباه الرواة 3 : 65 - 66 والبلغة للفيروز أبادى : 210 وبغية الوعاة 1 : 55 وله شعر، وذكر في المقتبس لابن حيان 5 : 35، 58 والتشبيهات لابن الكتّاني : 35.

11) مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم : 3156، ورقة 49.

12) المقتبس 5 : 35.

وذاك أثابه بتقديم ولده على خزانة المال كما قال الزبيْدي، بيد أنَّ هـذا الولـد ـ الـذي لا نعرف اسمه ـ غير مذكور في المدوَّنات التاريخية الموجودة.

وإذا ثَبَت أن بين عبـد الله الحُكيِّم ومحمّـد بن إسماعيـل الحكيم قرابـة، فقـد تكـون «النحوي» التي عرف بهـا الأخير نسبـة لا إلى النحْو الـذي كان يـؤدّب بـه، ولكن إلى نَحْو بن شَمْس، بَطنٍ من الأزْد، أي أنّ النَّحْـوِي نِسبـة إلى القبيـل الأزدي، وليس إلى الصَّنْعَةِ والحِرفة.

وقد ذكر ابن الفَرضي ـ وهو أزْدي قُرطبي ـ عـدداً من الأزْدِيين القرطبيين، ولكننـا لم نَرَ بينهم من له علاقة بهذين الرجُلين[13].

هـذا ولم يفسِّر الـزبيْـدي ولا غيره سبب شهرة الحُكيِّم التي عرف بهـا كلّ منهما، ومن المعروف أنها صيغة تصغير للحَكِيم، وهذه تطلق على من يتعـاطى علوم الحكمـة، ومن ضمنهـا المنطق والحسـاب : فـأمـا الحُكيِّم محمد بن إسماعيـل فقـد «كان الغـايـة في عِلم العربيّة والحسـاب والمنطق، وكان دقيق النظر لطيف الاستخراج صحيح الخـاطر، ولم يكن أحد من أهل زمانه يتقدمه في علمه ونظره»، كما يقول الزبيْـدي[14]، ولعلّـه من أجل هذا دُعي بـالحكيم، بل إن القـاضي صَـاعِـداً عـدّه في الطبقـة الأُولى من حكمـاء الأنـدلس فقـال : «ومنهم محمّـد بن إسماعيـل المعروف بـالحُكيِّم، كان عـالمـاً بـالحسـاب والمنطق دقيق الذّهن، لطيف الخاصر، وكان مع ذلك نَحوياً لُغوياً»[15].

13) ابن الفرضي 1 : 56. 264.
14) طبقات النحويين واللّغويين : 300.
15) طبقات الأمم : 75.

وأما الحُكيِّم عبد الله موضوع هذه المقالة فلم يذكره الزبيْدي وابن الأبّار إلاّ بمعرفة اللّغة والأخبار والأنساب وقرض الشّعر، ولكن القِفْطي يقول في ترجمة مَن اسمه عبد الله بن عبد الله (أو عبيد الله) الأندلسي ما نّصه :

«كان عالماً بالنحْو واللّغة، إماماً فيها، عالماً بالعدد والهندسة... يُنسب إليه عِلم صناعة الكيمياء، وكان الحَكم المستنصر يعظّمه ويوقره[16]». ويقف في وجه اعتبار هذه الترجمة منطبقة على صاحبنا وموضحة لشهرته أنّ اسم هذا المترجم عند القِفْطي وَرد في طبقات صَاعِد هكذا : «عبد الله بن محّد[17]...». وعن الطبقات نَقَل القِفطي.

ويبقى مع هذا أن نتساءل هل شهرة الحُكيِّم شهرة شخصية أم شهرة عائلية ؟

وإذا كانت شهرةً شخصيةً فإننا لا نستبعد أيضاً أن تكون شهرة محّمد بن إسماعيل بالتكبير ما دامت شهرة عبد الله بالتصغير كما نص على ذلك ابن الأبّار، وذلك للتفرقة بين الرجُلين أو للتمييز بين مقداريهما في الحكمة.

نعود بعد هذا إلى كتاب الحُكيِّم لنبحث في عنوانه ومحتواه وموضوعه وطبيعته من خلال النقول القليلة الباقية منه.

فأما العنوان فيُستفاد ممّا ورد في «الذيل والتكملة» أنه كالآتي : «كتاب في أنساب الدّاخلين إلى الأندلس من العرب وغيرهم»[18].

---

16) إنباه الرواة 2 : 121 وفيها : عبد الله بن عبد الله الأندلسي المعروف بالبرقي (؟).

17) طبقات الأمم : 77 وفيها : عبد الله بن محمد المعروف بالسري (؟) وربما كانت هذه النسبة والتي قبلها محرفة عن المَسرَى نسبة إلى ابن مَسَرّة، ويقارن هذا الاسم والذي قبله باسم عثمان بن محمد الأزدي القري (؟)، وهو منجّم، ومؤلّف كتاب في فقهاء الأندلس. (ابن الفَرضي 1 : 349 ـ 350 والقري في هذا الاسم تبدو محرفة كما في الاسمين السّابقين).

18) الذيل والتكملة 6 : 208.

وبهذا العنوان وقع النقل عنه في السِّفر السادس من الكتاب المذكور، وهو ـ كما أشرنا من قبل ـ شبيه بعنوان كتاب معاصره أحمد الرّازي في الموضوع : «كتاب في أنساب مشاهير أهل الأندلس»، كما سمّاه ابن حَزم[19]، وهو المسمّى أيضا بالاستيعاب الذي جمعه للناصِر أيضاً. وبهذا الإسم المختصر نقل عنه ابن الأبّار وابن عبد المَلِك وغيرهما، وبه أيضا ذكر عند حَاجّي خَلِيفة وغيره[20].

ولسنا نعرف متى فرغ الرّازي الأوسط من تأليف كتابه. أما الحُكيِّم فقد فرغ من مؤلّفه ورفعه إلى الناصر سنة ثلاثين وثلاثمائة، وقد نفهم من هذا أنه ألّفه بأمر من الخليفة الناصر، وهو على أي حال يدخل في إطار حركة التدوين الكبرى التي برزت في أعقاب نهاية المنتزين وبداية الخلافة. وكان التاريخ على اختلاف فروعه مِحْور هذه الحركة فوُضعت مدوّناتٌ إخبارية إمّا عامّة تشمل الأندلس كلّها أو إقليمية تقتصر على مدينة بعَيْنها، وأُلّفت كتب طبقات متنوعة للفقهاء والشّعراء والحكماء والنحويين واللّغويين، وظهرت مؤلَّفات في أنساب أهل الأندلس، ومنها ما ألّفه أحمد الرّازي وعبد الله الحُكيِّم.

لقد ذكر ابن حَزم أنّ كتاب الرّازي يقع «في خمسة أسفار ضخمة»، أما كتاب الحُكيِّم فليست لدينا فكرة عن حجمه، ولعلّه لم يكن يقلّ عن حجم نظيره.

وإذا كنا لا نملك أي نّص عن محتوى «أنساب الرّازي» ومخطّطه ومنهجه، فإنّ فقرة ابن عبد الملك التي أوردناها تسعفنا في معرفة محتوى «أنساب الحُكيِّم» ومخطّطه ومنهجه، فهذا الكتاب حسب تلك الفقرة يتألّف من الأقسام التالية :

---

19) رسائل ابن حَزم 2 : 184، تحقيق الدكتور إحسان عباس ونفح الطّيب 3 : 174.

20) انظر الحُلّة السيراء، 1 : 68، 245 / 2 : 366، وكشْف الظنون وبونس بويجس رقم 23.

1) ـ الخلفاء، ولسنا ندري هل اقتصر في هذا القسم على الأُمَويين في الأندلس بدءاً بعبد الرحمن الداخل حتى عبد الرحمن الناصر، أم أنه ذكر أيضاً الأُمويين بالمشرق والعباسيين والعَلَويين، كما فعل ابن حَزم من بعده في «الجَمْهَرة».

2) ـ أولاد الخلفاء ونسْلهم بالأندلس : ولا بدّ أنه ذكر في هذا القسم ولَد عبد الرحمن بن معاوية ومَن جاء بعده حتى عهد عبد الرحمن الناصر، ولعلّه ذكر في هذا القسم أيضا أولاد الخُلفاء الأُمويين بالمشرق ومن دخل منهم إلى الأندلس وأنجب بها.

3) ـ سائر قُرَيش : ويدخل تحت هذا العنوان بَنُو زُهره وبنو تَيم وبنو مَخْزوم وبنو عَدِي وبنو جُمَح والفِهْريون.

4) ـ موالي الأُمويين وسائر قريش : وكانوا من الكثرة في الأندلس بحيث إن الرّازي أحمد خصّهم بكتاب مستقلّ، وتُعنَى كتب التراجم الأندلسية بتعيين هؤلاء المَوالي وتحديد ولائهم اعتماداً على الرّازي وغيره.

وينفرد ابن عبد الملك بالرّجوع إلى كتاب «الحُكيِّم» في بعض الحالات.

وكان مَوالي الأُمويين وسائر القُرَشيين على درجتين : شامِيّين وبلَديين، وكان الشّاميون أرفع درجة من البلديين، وفي هذا يقول الأمير عبد الله الأمَوي :

مَوالي قريشٍ من قريشٍ فقدّموا   مَوالي قريشٍ لا مَوالي مُعَتِّب (مغيث)
إذا كان مولانا يُساويهِ عندنا   سواءً فمولانا كآخر أجنَبي[21]

21) الحُلة السيراء، 1 : 121. وفيها يساوم ولا معنى لها، وصوابها ما ذكرنا.

5) ـ أهل الخدمة والتصرّف للأمويين : لعلّه يقصد بهم الوزراء والحجّاب والعمّال والقُوّاد والقضاة وغيرهم. ومن المعروف أن جلّ هؤلاء كانوا من مَوالي الخلفاء الأمويين بالمشرق والأندلس، أو من موالي أولادهم وبناتهم[22]، ومنهم على سبيل المثال بيوتات بني حدير وبني أبي عبده وبني شهيد وبني فُطَيْس وبني عبد الرّؤوف وبني بسيل وبني غانم وبني رستم وبني الزجالي وبني وانسوس وبني الخليع وغيرهم. وقد خصّ عيسى الرّازي كلاً من الحجّاب والوزراء بتأليف مستقلّ برسم المنصور بن أبي عامر[23].

6) ـ مشاهير العرب الدّاخلين إلى الأندلس من المشرق من غير قريش.

ويندرج في هذا القسم سائر الدّاخلين إلى الأندلس من أبناء القبائل القَيْسية واليَمنية، وعددهم كبير. ويُفهم من بعض النقول عن الحُكيِّم أنه ذكر أوائل الداخلين منهم وعيَّن منازلهم بالأندلس وساق أنسابهم وسمّى مشاهيرهم وأعيانهم.

7) ـ مَوالي العرب غير القُرَشيين : ونقف في كتب التراجم على عدد منهم.

8) ـ مشاهير قبائل البربر الذين احتلوا الأندلس : ولا بدّ أنه تكلّم في هذا القسم الأخير على أشهر القبائل البربرية التي دخلت الأندلس منذ الفتح حتى عهده، وتتبع المنازل التي نزلت بها في مختلف أرجاء الأندلس.

هذا هو التصميم العام لكتاب الحُكيِّم المفقود كما يؤخذ من وصفه لدى ابن عبد الملك، ونحن نجد ما يقرب من هذا التصميم في «جَمهرة أنساب العرب» لابن حزم، فقد

22) كان القاضي عمرو بن عبد الله المعروف بالقبعة مولى لإحدى بنات الأمير عبد الرحمن بن معاوية (ابن الفرضي، 1 : 363) وكان جدّ بني مزين مولى لرملة بنت عثمان بن عفّان، (المصدر نفسه، 2 : 178).

23) الذيل والتكملة، 5 : 491.

صدّرها بأنساب الخلفاء وأبناء الخلفاء، وجعل في أواخرها جمهرة من أنساب البربر وبيوتاتهم في الأندلس. والجمهرة كتاب عامّ في أنساب العرب وغيرهم، ولكن ابن حَزم يشير في تضاعيف هذه الأنساب إلى الموجود منها بالأندلس وإلى ديار أصحابها ومنازلهم.

وبهذا يتميّز ابن حَزم عن غيره من الأندلسيين الذين ألّفوا في الأنساب في عصره كابن عبد البرّ (ت 462) الذي بَنَى عملَه على الاختصار في كتابيه : «القصد والأُمَم، في التعريف بأُصول أنساب العرب والعجم»، و«الإنباه، على قبائل الرّواه».

ولا يشبه ابن حزم في الالتفات إلى ما يرجع إلى الأندلس في الأنساب إلاّ الرّشاطي (ت 542 هـ)، الذي يشتمل كتابه الجليل على فوائد قيّمة في تاريخ الأندلس وجغرافيتها وأعلامها حسب القطع التي وصلت إلينا من «اقتباس الأنوار»، وهي ما تزال مخطوطة، وفي حالة غير جيّدة، أعان الله من يقوم على إخراجها[24].

كما أن ابن غالب نمّى رصيد الأنساب العربيّة في الأندلس، ودوَّن المشهور منها في وقته، وهو القرن السّادس، وعن «فرحة الأنفس» نقل المقري تلك المقتطفات الموجودة في نَفح الطِّيب[25].

نظن أن كتابَي الحُكيِّم والرّازي في الأنساب كانا من مصادر ابن حَزم فيما يخصّ أنساب الأندلسيين ومواطن نزولهم واستقرارهم، ولو أنه لا يشير إلى مستنده في هذا مع أنه في عموم الأنساب العربيّة يُسمّي النّسابين المشهورين الذين رَوَى عنهم.

24) انظر ما كتبتُه حول اقتباس الأنوار في الذيل والتكملة، 1 : 274 ويهتمّ بهذا الكتاب منذ زمن الأستاذ بوش ڤيلا.

25) نفح الطِّيب، 1 : 289 ـ 290، تحقيق الدكتور إحسان عباس.

هذا ونضيف إلى ما قلناه عن تصميم كتاب الحُكيِّم أن كلّ قسم من أقسامه الثمانية المذكورة يشتمل على عناوين فرعية، وقد عبّر عنها ابن عبد الملك بالرسوم، أي التراجم على غرار التراجم في كتب الطبقات أو المواد في المعجمات، فهو على سبيل المثال يفرد رسماً أي عنواناً هكذا :

ـ المعافـر ـ

ويذكر تحته المنسوبين إلى هذا القبيل بالأندلس، وأين ينزلون، وقد نقل ابن عبد الملك من «رسم المعافر بقرطبة» ما يلي : «منهم بيت محمّد بن بشير القاضي، ولهم بقيّة، وبيت بني شراحيل، وهم أصهار بني بشير، وكانوا أهل صلاح ولهم بقيّة»[26].

وبطبيعة الحال، فقد اقتصر ابن عبد الملك على هذا لأنه محلّ الشّاهد عنده وإلاّ فقد يكون الحُكيِّم ذكر غير بني بشير، وبني شراحيل من المعافريين القرطبيين وغيرهم في زمنه كآل عامر، سلف المنصور وبيت بني جَحّاف ببلَنْسية وبيت بني مفوز بشاطبة[27].

قلنا إن ابن عبد الملك أشار إلى الحُكيِّم في الأسفار الموجودة ستّ مرّات ونعددها فيما يلي :

26) الذيل والتكملة، 6 : 208. وانظر ترجمة عمرو بن شراحيل عند ابن الفرضي 1 : 362 حيث ورد فيها : «قال قاسم بن أصبغ : عمرو بن شراحيل هذا هو جدّ بني شراحيل هؤلاء الذين عندنا (يَعني بقرطبة)». وراجع أيضا ترجمة بشير بن شراحيل في المصدر نفسه ص 192.

27) انظر جَمهرة ابن حَزم : 418، وقد تسلسل الفقه والقضاء في بني جحاف وبني مفوز حتى خروج المسلمين من شرق الأندلس كما يُستفاد من كتب التراجم.

1) - في ترجمة أحمد بن عبد الله بن يحي بن يحي الليثي، حفيد كبير المالكية في وقته وتلميذ الإمام مالك وراوية كتابه المُوطّأ.

قال ابن عبد الملك في سياق الحديث عن الولاء اللّيثي لهذه الأسرة البربرية : «وقال الحُكيِّم : يتولون بني ليث من كِنانة، وقيل نزلوا منزل بني ليث فنسبوا إليه»[28].

2) - في ترجمة أحمد ابن مَضَاء القرطبي صاحب الآراء المعروفة في النحْو.

في هذه الترجمة وردت الفقرة الاعتراضية عن الحُكيِّم وكتابه، وهي التي حللناها فيما سبق، وقد جاء بعدها ما يلي، فذكر، أي الحُكيِّم، أن بجيان من لخم بيت مهند بن عمير، قال : «وهم هناك جماعة أهل فضل ودين، ولهم فُرسان شجعان بلَديون، منهم عبد الرحمن بن وافد بن عبد الرحمن بن يحي بن حرب بن يحي بن مهند القسّام، ومنهم النجَاشي بن حريث بن عاصم بن مَضَاء بن مهند»[29].

---

28) الذيل والتكملة، 1 : 190 ونجد بعد هذه الفقرة ما يلي : «والداخل إلى الأندلس من عَقِبه كثير، المذكور وأخوه يَزيد، وهو المتوجّه من قِبل عبد الرحمن بن معاوية إلى عمّاته بالشام حين استوسق له الأمر بالأندلس، ومات ولم يعقّب، وقيل إن المتوجّه إليها كثير. والله أعلم». ولسنا متأكدين أن هذا الكلام مما نقله ابن عبد الملك عن الحُكيِّم، وإن جاء في سياق النقل. ولا بأس أن ننقل هنا ما جاء في ترجمة يحي بن يحي اللّيثي في أخبار الفقهاء والمحدّثين لمحمد بن حارث الخشني قال : «وهي يحي بن يحي ابن كثير ويحي أبوه هو المعروف بأبي عيسى، أصله من البربر، ويتولّى بني ليث وذكر أبو عبد الله القاضي محمد بن عبد الله ابن أبي عيسى أن الإمام عبد الرحمن بن معاوية رحمه الله لقي في طريقه يحي بن كثير المعروف بابن الحداء، فقدمه بكتب إلى قرطبة ثم وجّهه إلى الشّام ثم ولاّه الجزيرة، وقَبْره هناك». وراجع على الخصوص الأخبار الواردة في السِّفر الذي حققه الدكتور محمود مكّي من المقتبس مع الحواشي الواردة في الصفحات التالية : 465، 480، 494، 542.

29) الذيل والتكملة، 1 : 213، وقد ذكر ابن حَزم في الجمهرة : 424 أن دار لَخم بالأندلس هي شذُونه والجزيرة وإشبيلية وعدّ من اللخْميين آل عباد وآل عمارة ثم قال : «ومنهم حجاج، وسيّد، وحبيب، ومحمد، بنو عمير بن حبيب بن عمير»، ورفع النسب إلى لخْم. ويبدو أن محمد محرّفة عن مهنّد، وينبغي أن يكون هو مهند بن عمير الذي أشار الحُكيِّم إلى استقرار بيته بجيّان، ولم يُشر ابن حزم إلى هذا، ولعلّ أبناء مهنّد انتقلوا إلى جيّان بعد زوال أيام بني حجاج أبناء عمومتهم. وانظر كذلك نفح الطِّيب، 1 : 295 ـ 296.

3) ـ في ترجمة أبي الحسن اللّونقة، تلميذ ابن وافِد الطبيب المعروف وخلفه في الطبّ.

أثبت ابن عبد الملك نسبه مرفوعاً إلى سَعد بن عُبادة الخزْرجي الصحابي الجليل وقال : «كذا نقلتُ نسَبَه من خطّ غير واحد من عقِبه، وأرى فيه تخليطاً وأنه ليس من ذرّية قيس بن سعد بن عبادة وإنما هو من ذرّية سعيد بن سعد بن عبادة، فقد ذكر أبو محمد بن حَزم في جماهر النسَب أن لسعيد بن سعد هذا عقِباً بالأندلس بقرية يقال لها قرملان من عَمَل سرقُسطه من قبل الحسين بن يحي بن سعيد بن سعد بن عبادة، ولذلك أرى أن إقحامَ قيس بين سعيد وسعْد وَهْمٌ والله أعلم. وأيضا فإن عُبادَة الشّاعر بن ماء السماء من هذا البيت، وهو عبادة بن عبد الله بن محمد بن عباده بن أفلح بن الحسين، فأفلح مقدَّم على الحسين في هذا النسب وعكسه في نسب على المترجم به.

وقد ذكر الحُكيِّم أن بسرقُسطة بيت الحسين بن يحي الثائر بها، وهو الحسين بن يحي ابن سعيد بن سعد بن عبادة.

قال، أي الحُكيِّم : «ومن أهله عبادة بن أفلح بن سعيد بن يحي بن سعيد بن سعد».

قال المصنّف عفا الله عنه : «وعبادة هذا هو أبو جدّ عُبادة الشّاعر، ولم يذكر الحسين بالأفلح ولا ابناً له»[30].

4) ـ في ترجمة قطن بن خزز، مَبْحث في نسَبه ونسَب ولَده بشْر ومكان قضائه، وجاء في آخر هذا المبحث ما يلي : «وقال الحُكيِّم إنه ولي قضاء جيّان»[31].

30) الذيل والتكلة، 5 : 250. والجمهرة : 365. ونفح الطيب، 1 : 294.

31) الذيل والتكلة، 5 : 574. والجمهرة : 233. وقُضاة قرطبة : 67.

5) - في ترجمة أبي بكر ابن سيّد الناس مؤسّس الأسرة الأندلسية التي اشتهرت بتونس ثم بمصر.

رفع ابن عبد الملك نَسَبَهُ إلى عدنان ثم قال : «وسَلَفُهُ نـاقِلَـةٌ من منبج، وقد ذكر أبو محمد بن عبيد الله الحُكيِّم منهم أبا الوليد بن منذر المذكور ورفع نسبه إلى يعمر بن مالك، كما أثبتناه»، والنسب الذي أثبته نقلاً عن الحُكيِّم هو : أبو الوليد بن مُنذر بن عبد الجبار بن سليمان بن عبد العزيز بن حرب بن محمد بن حسّان بن سعد بن عبد الرحيم بن خلَف بن يعمُر بن مالك[32].

6) - في ترجمة محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل مبْحث في هذا النسَب رجع فيه المؤلّف إلى عدد من المؤرخين والنّسابين، وقد أشرنا إلى هذا الموضع فيما سبق وسنعود إليه[33].

لا نظن أنّ نُقول ابن عبد الملك عن الحُكيِّم محصورة فيما ذكرناه، إذ من الممكن أنه نقَل عنه في الأسفار المفقودة، ويبدو أنه انتفع به في أنساب بعض مترجميه، ولم يذكره.

لقد تساءلت في مقدمة هذا العرض عن السرّ في انفراد المؤرخ المرّاكشي بذكر الحُكيِّم والنقل عنه وعزوْت ذلك إلى تبحّره وسَعة اطّلاعه ووقوفه على ما لم يقف عليه غيره، وأضيف إلى ذلك أنه كان مُعتنياً بالأنساب مولعاً بتحقيقها، فلا غرابة إذن إذا بذل غاية جهده في جمع كلّ ما كتب فيها حتى زمنه، وقد بدا أثر ذلك في منهجه الذي يتميز برفع قعدد المترجم، في الكثير، حتى أوّل داخل إلى الأندلس، وأحيانا إلى

---

32) الذيل والتكملة، 5 : 293. والجمهرة : 293.

33) الذيل والتكملة، 6 : 208.

أعلى جدّ في نَسبه. كما بدا أيضاً في تصويباته الكثيرة، واستدراكاته العديدة. وللدلالة على سَعة اطلاع الرجُل، نسوق الترجمة الآتية كمثال على ذلك :

«محّد بن سعيد بن بشير بن شراحيل».
كذا نسبه أبو مروان ابن حيان.
وقال فيه ابن شعبان : محمد بن بشير بن سرافيل.
وقال ابن الفرضي في بعض معلّقاته : محمد بن بشير بن محمد.
وقالا (أي شعبان وابن الفَرضي) : المَعافري.
وقال أبو عبد الملك أحمد بن محمد بن عبد البرّ : محمد بن بشير المعافري، وكنّاه أبا بكْر.
وقال ابن حارث : محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل المعافري.
وقال خالد بن سعد في ترجمة : محمد بن سعيد بن بشير...
وقال بعد تراجم كثيرة : محمد بن بشير... فظنّ به أنهما عنده رجلان، وذكر الأول مختَصرا واحتفل في ذكر الثاني، ويظهر أنهما واحد كررهما غلطا، والله أعلم.

ثم نسبته إلى شراحيل فيها نظر، فقد ذكر عبد الله الحُكيِّم في كتابه في أنساب الداخلين إلى الأندلس من العرب وغيرهم في رسم المعافر بقرطبة : منهم بيتُ محمد بن بشير القاضي، ولهم بقية، وبيت بني شراحيل، وهم أصهار بني بشير، وكانوا أهل صلاح، ولهم بقية.

ويمكن عندي أن يكونا رجُلين : أحدهما محّد بن بشير بن محّد كما قال ابن الفَرضي، والثاني محّد بن سعيد بن بشير كما قال ابن حيان وابن حارث والسالمي. وعلى الجملة فتحقيقه مما أشكل، فاجعله منك على ذكر»[34].

34) الذيل والتكملة، 6 : 208 والتكملة لابن الأبّار : 355.

كما نرى في هذه الترجمة، لكي يحقّق ابن عبد الملك اسم هذا المترجم وسلسلة نسَبه رجع إلى ما كتبه ثمانية من المؤرخين وهم :

1) ـ أبو مروان ابن حيّان في كتابه «المُقتبس»[35].

2) ـ أبو إسحاق محمد بن شعبان في مؤلّفه «كتاب الرُّواة عن مالك»[36].

3) ـ ابن الفَرضي في بعض معلّقاته[37].

4) ـ أبو عبد الملك أحمد بن محمد بن عبد البرّ في كتابه «فقهاء قرطبة»[38].

5) ـ أبو عبد الله محمد بن حارث الخشني[39].

6) ـ خالد بن سعد وله كتاب في رجال الأندلس ألّفه للحَكَم المستنصر، اعتمد عليه ابن الفَرضي كثيراً، وهو الذي أشار إليه المؤلّف هنا وكان تحت يَده[40]، بينما نرى ابن الأبّار ينقل عنه هنا بواسطة ابن حارث.

7) ـ أبو عامر السالمي في كتابه «دُرر القَلائد». وقد كان ابن عبد الملك يمتلك نسخة منه بخط مؤلّفه[41].

8) ـ عبد الله الحُكيِّم موضوع هذا المقال : ومن هنا نُكوِّن فكرة عن المكتبة التاريخية الضخمة التي أتيحت لهذا المؤرخ الكبير، وهي المكتبة التي تأسّست مع

35) في التكلمة : 355 أنه ذكرهُ في انتخابه من أخبار القُضاة، وقد ظنّ بعضهم أن هذا اسم مؤلَّف من مؤلَّفات ابن حيان، كما يوهمه كلام ابن الأبّار، وعبارة ابن عبد الملك تقطع بأنه عنوان في المُقتبس، وهذا يؤكّد ما استنتجه مَحْمود مكّي في مقدمته الممتازة للمقتبس : 72 ـ 73.

36) ترجمة ابن شعبان المالكي المصري في الديبَاج : 231، وحُسْن المُحاضرة، 1 : 141.

37) أي أنه لم يترجم له في تاريخه، وإنما ترجم فيه لسعيد بن محمد بن بشير (انظر : ج 1، ص : 192).

38) ترجمة أحمد بن عبد البرّ عند ابن الفَرضي، 1 : 50 والحُلّة السيراء، 1 : 207 ـ 208 وبونس بويجس، 58 ـ 59، وينقل عنه ابن حيان وابن الفَرضي وابن سعيد.

39) انظر قضاة قُرطبة : 54 ـ 55.

40) ترجمة خالد بن سعد عند ابن الفرضي، 1 : 154 ـ 156.

41) انظر الذيل والتكملة، 6 : 7 ـ 11.

تأسيس مدينة مرّاكش وقيام المرابطين واستمرت في النمّو والتضخّم حتى نهاية الموّحِدين، ومن هذه المكتبة نَهل المؤرخون المرّاكشيون ومنهم ابن الصيْرفي والبيْذق وابن صاحب الصَّلاة ويوسف بن عمر وعبد الواحد المرّاكُشي وآخرون(42).

لا نستطيع أن نتكهّن بمآل النسخة التي اطّلع عليها ابن عبد الملك من كتاب الحُكيِّم، ولكننا لم نقف على أيّ خبر له عند من جاء بعده، ولذلك فإنه يظلّ الشاهد الوحيد حتى الآن على وجود هذا الكتاب.

لقد طال الزمن وبعُد العهد بالمدوّنات التاريخية التي أُلّفت لعبد الرحمن الناصر والحَكم المستنصر كمؤلفات الحُكيِّم والرّازي وابن النظام وابن سعدان وخالد بن سعد وعَريب وإسحاق بن سلَمَة القَيْني والأُقْشْتِين وابن عبد الرؤوف والشَّبانسي وغيرهم، ولكن الأمل لم ينقطع تماما من ظهور بعضها، ولقد تأثر رواج هذه الكتب بسبب المؤلفات التي ظهرت بعدها، ولكأنَّ المؤلَّفات تخضع هي أيضا لقانون التطوّر والارتقاء وناموس النسْخ والانتقاء، وفي عصور النسخ اليدَوي كثيراً ما نَسخت الكتبُ الجديدة الكتبَ القديمة وعفّت اللاّحقة على السابقة، فابن حيّان مثلاً ضمّن كتابه «المقتبس» معظَم أعمال سلَفه من المؤرخين وزاد عليها ووصلها إلى وقته فأغنى عن تلك الأعمال. وكذلك غطّى من جاء بعده على أعمال من سبقهم، وهكذا دواليك، كما كان للتلاخيص التي وضعها مجهولون أو معروفون أثرٌ سلبي على بقاء الأُصول الملخّصة واستمرارها تمثل أخبار مجموعة وقطعة أخبار عبد الرحمن الناصر ومجموع ذِكر بلاد الأندلس الذي حقّق نَصّه العربي وترجمه أخيراً الدكتور لُويسْ مُولينَا.

ومع أننا نحسّ أحياناً أنه كلّما بعُد زمن النصّ عن زمننا، كلّما ضعُف الأمل في بقائه، فما زلنا نفاجأ بين الحين والحين بظهور بعض هذه الأُصول المفقودة، وقد ظهر

42) انظر مقدمة السِّفر الثامن من الذيل والتكملة، ص : 77.

بالفعل شيء منها ونشر في السنوات الأخيرة، فلقد ظهرت في الخزانة الحَسنية العامرة ـ على سبيل المثال ـ نسخة من كتاب أخبار الفقهاء والمحدّثين لمحمد بن حارث، كتبت عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة، والسِّفر الخامس من المقتبس الذي نشر بعناية الزّملاء السادة : شالْميتا وكُورينْت وصبح. وصدر عن المعهد الإسباني للثقافة العربيّة بمَدْريد وكلّية الآداب بالرِّباط، وعندنا دائماً أمل في أننا ربما نعثر على ما لم نكن نطمع في العثور عليه، وإن للخزائن المغربيّة لفضلاً كبيراً في نقل الكثير من تراث الأندلس إلينا برغم آثار القِدم وعوادي الزمن وعوامل التلَف، إذ لا يخفى أن جلّ ما نُشر من هذا التراث تعود مخطوطاته إلى الخزائن المغربيّة وما يزال الكثير من مكنوناتها ينتظر النشر.

إنّ هدفي من هذا المقال السّريع المتواضع الذي أُعدّ على عجل هو لَفْت أنظار أساتذة التاريخ الأجلاء إلى الكتابة عن أصحاب المصادر الأُولى المفقودة في تاريخ الأندلس ومراجعة القليل الذي كتب عنهم على ضوء النصوص المكتشفة والنقول الجديدة المقتبسة من مؤلفاتهم الضائعة، وأذكر على سبيل المثال أن السِّفر الخامس من المقتبس يقدّم مادة جديدة عن بعض هؤلاء كأبي عبد الله محمد بن مسعود صاحب الأنيق[43]، وأبي عبد الحميد إسحاق بن سلمة القيني مؤلّف تاريخ مَالَقة وغيره من المؤلفات التاريخية، وقد كنا نظن أن الحَزْميين أبا المغيرة عبد الوهاب وأبا محمد علي هما أول من فتح باب الكتابة والتأليف في موضوع فضل الأندلس بالمعنى الفخْري الذي واصله ابن سعيد والقاضي القلقشندي، وإذا بنا نجد فقرة طريفة في الفخر بشعراء الأندلس نقَلها ابن حيان عن كتاب فَضْل الأندلس لإسحاق بن سلَمة[44] هذا الذي ما يزال التحريف يقع حتى في اسمه (مسلمة، سلمة، اللّيثي، القبشي، القيسي، القيني)[45]، وما عبد الله الحَكيّم النسابة والمؤرخ المجهول موضوع هذا المقال إلاّ واحد من هؤلاء.

43) المقتبس، 5 : 9، 53، 200، 303.

44) المصدر نفسه، ص : 46.

45) جمعت مادة لكتابه مقالة موسّعة عن القيني.

ابن الخطيب السلماني
وكتابه «الوُصُول لحِفظ الصحّة في الفُصول»*
تعريف وانتقاء

محمد العربي الخطّابي

يُعَدُّ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السَّلماني الشهيرُ بابن الخطيب والملقّبُ عند المشارقة بلسان الدين،[1] من أعلام الفكر والأدب وأقطاب السياسة والدولة في الأندلس الإسلامية، فذِكْرُه يجري على كلّ لسان، ومؤلّفاته في الأدب والتاريخ والتراجم والسِّيَر والتصوف معروفةٌ مشهورة، وجلُّها مطبوع، وبعض أشعاره من محفوظات النّاس، وقد وَلِعَ بجمع أخباره بعض الأقدمين والـمُحدَثين يأتي على رأسهم

---

* نقدّم في هذا العدد نبذة عن عناية ابن الخطيب بعلم الطبّ وتعريفا بكتاب «الوصول» مع منتخبات من جزئه الأول. ونقدّم في عدد قادم ـ إن شاء الله ـ ملخصاً للجزء الثاني من هذا التصنيف.

1) مصادر ترجمة أبي عبد الله ابن الخطيب كثيرة ومتوافرة نذكر منها : ـ 1) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، الجزء الأول، (مقدمة المحقق)؛ والجزء الرابع (ترجمة ابن الخطيب بقلمه) ـ 2) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد المقري، تحقيق إحسان عباس. ـ 3) لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، تأليف محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة 1388 هـ / 1968. ـ 4) روضة التعريف لابن الخطيب، (مقدمة المحقق محمد الكتاني)، دار الثقافة، بيروت 1970. ـ 5) بروكلمان، الذيل 2 : 73 ـ 272.

المقري مؤلف «نفح الطِّيب» وكل هذا يُغني عن التَّعريف به وبآثـاره في مختلف فنون المعرفة الأدبية والتاريخية.

ولَمَّـا كان الغرض من هـذا البحث الكـلامَ على عنـايـة ابن الخطيب بعِلم الطبّ والتعريفَ بأهمّ كتاب ألفه فيه، فإن المنهج يقتضي الإتيان بنبذة يسيرة توضّح مكانتَه في هذا الميدان العلمي مع الإشارة إلى آثاره المكتوبة في الطبّ والأغذية وحفظ الصحة، لاسيا وأن هذا الجانب من نشاط ذي الوزارتين لم يَلْقَ إلى الآن ما هو أهل له من عناية ودراسة.

يُخبرنا ابن الخطيب في ترجمته لنفسه أنَّه أخذ «الطبّ والتعاليم وصناعة التعديل على الإمام أبي زكريا بن هذيل» وأنه لازمه إلى آخر حياته[2].

وأبو زكريا هذا هو يحي بن أحمد بن هـذيل التجيبي، أصلـه من أرْجِـدونـة Archedona، قال عنه ابن الخطيب : «كان آخرَ حَمَلَة الفنون العقلية بالأندلس، وخاتمةَ العلماء بها، من طِبٍّ وهندسةٍ وهيئةٍ وأصولٍ وأدب... غيرَ مبالٍ بالناس، مشغولاً بخاصة نفسه، خدم أخيراً بباب السلطان بصناعة الطبّ، وقعد بالمدرسة بغرناطة يُقْرِئُ الأصول والفرائض والطبّ»[3].

من مؤلفات ابن هذيل «الاختبار والاعتبار في الطبّ» و«التذكرة في الطبّ»، وكلاهما من الآثار المفقودة، وقد تُوفّي في الخامس والعشرين من عام 753 هـ، وتولّى ابن الخطيب دَفنه بباب إلْبيرة في غرناطة بجوار زوجته تنفيذاً لوصيته[4].

2) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، 4 : 459، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1397 هـ / 1977 م.

3) نفس المصدر : 4 : 390.

4) نفس المصدر : 4 : 401.

وكان ابنُ الخطيب يُعِزُّ أستاذه ابنَ هذيل إعزازاً شديداً، فلمَّا أُصيب بالفَالج نقله ابن الخطيب إلى منزله ولزمه حتى حضرته الوفاة، وكان قبل ذلك قد أملى على تلميذه ابنِ الخطيب أبياتاً جاء فيها :

إذا مِتُّ فادفنّي حذاء حليلتي يخالط عظمي في التراب عظامَها
لعلّ إلَه العرش يَجْبُر صَدعتي فيُعلي مَقامي عنده ومقامَها

هذا ولم يذكر لنا ابنُ الخطيب شيخاً آخرَ من شيوخه في الطبّ والتعاليم غيرَ ابنِ هذيل.

ولسنا في حاجة إلى القَوْل إن ذا الوزارتين لم يتفرَّغْ إلى ممارسة مهنة الطبّ العملي تفرغاً كاملاً لانشغاله بأُمور الدولة، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نؤكّد أن عنايتَه بهذا الفَنّ كانت كبيرة بل إنها كانت أحياناً جزءاً من أعبائه الرسمية كما تدلُّ جميع القرائن، فهو قد ألّف كتابه «عمل مَنْ طبّ لمن حبّ» لسلطان المغرب أبي سالم بن أبي الحسن المَريني (760 ـ 762 هـ / 1359 ـ 1361 م)، كما أهدى كتابه «الوصول لحفظ الصحة في الفصول» لسلطان مملكة غرناطة أبي عبد الله محمد الغنيِّ بالله النصري (755 ـ 793 هـ / 1354 ـ 1390 م) وقد ضَمَّن هذا الكتاب رسالةً في أحوال النوم واليقظة أملاها بباب هذا السلطان نفسِه، وهو الذي أشار بتقييدها كما سنرى في القسم الذي عرضنا فيه فصولاً من هذا التأليف الذي أُدرج ابن الخطيب في ثناياه بعضَ النصائح الطبية التي كان يُسديها للسلطان على مائدة الطعام وفي المجالس الخاصة تنبيهاً له إلى وجوب الاعتدال ومُغالبة الشهوات وما تقتضيه سلامة الصحة من حَذَر. وعلى هذا يمكننا أن نقول إن ابنَ الخطيب كان طبيبَ البلاط إلى جانب ما تحمَّله من أعباء الوزارة، فضلاً عن انشغاله بالتأليف في الطبّ والبيطرة والبَيْزرة.

مؤلَّفات ابن الخطيب في الطبّ والبيْطرة

ونحن نعتمد في ذكر مؤلَّفاته الطبية على ما جاء في كتاب الإحاطة في ترجمة المؤلف لنفسه وفي نَفْح الطِّيب للمقري، وعلى ما وصلنا منها، وكلّه ما يزال مخطوطاً :

- رسالة الطاعون[5].
- المسائل الطبِّية.
- الرَّجز في عمل التّريَاق.
- اليوسفي في الطبّ.
- رسالة تكوين الجنين. (أشار إليها المؤلف في ثنايا كتاب الوصول).
- رَجَزٌ في الطبّ[6]، وهو على الأرجح ما سمّي في بعض المصادر بالأرجوزة المعلومة.
- رَجَز في الأغذية.
- عَمَلُ من طبّ لمن حبّ[7].
- كتاب في البيطرة وآخر في البَيْزرة.
- كتاب الوصول لحفظ الصحة في الفصول الذي هو موضُوع هذا المقال، ولعلّه أهمّ كتاب أَلَّفه ابن الخطيب في هذا العلم، واسمه دالٌّ على مسَمّاه من حيث إنه يُعنى بتدبير الصحة بما يُناسِب كلّ فصل من فُصول السّنة الأربعة. ويتضمن هذا الكتاب رسالة مستقلة بذاتها موضوعها «النوم واليقظة»، أملاها ابن الخطيب قبل تأليف كتاب الوصول.

---

5) ذكرها ابن الخطيب في الإحاطة، وأشار إليها في كتاب الوصُول عند الكَلام على الأوبئة في الفصل الذي عرض فيه لتغيرات الهواء.

6) توجد منه نسخة خطّية في الخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط، رقمها 515 / مجموع. عدد أبياتها 1600.

7) توجد منه نسخة خطّية في الخزانة الحسنية. رقمها 3477 / مجموع (1)، ونسخة بخزانة القرويين في فاس رقمها 40 /607، ونسخة أخرى في المكتبة الوطنية بمدريد.

تعريفٌ بالكتاب

فرغ ابن الخطيب من تأليف «الوُصول لِحفْظ الصِّحة في الفُصول» في الثاني عشر من جمادى الأولى عام 771 هـ / 1369 م، أي قبل وفاته مقتولاً بنحو خمسِ سنين[8]، وأهداه للسلطان أَبي عبد الله محمّد الغنيّ بالله النّصري، وضمَّنه خلاصةَ معارفه وتجاربه في حفظ الصحة والأَغذية والوقاية من الأمراض ومعرفة علاماتها قبل نزولها.

ويشتمل هذا التأليف على جزءين : جزء التعريف، وجزء التصريف. يُعالج الأولُ منهما الجانبَ النظريّ العام والثاني الجانب العملي في الوقاية وحفظ الصحة. وكلٌّ جزء يشتمل على ثلاث قواعد، وكلّ قاعدة مقسّمة إلى أبواب وفُصول. وينتهي الكتاب بخاتمة يشرح فيها المؤلّف الألفاظ الطبّية الاصطلاحية والأَلفاظ اللغوية مرتبةً على حُروف المُعجم بالترتيب المتَّبع عند أهل المغْرب.

موضُوعات الجُزْء الأول :

ـ حقيقة الفُصول وأسْبابُها، وهو مبحث يستعين بعلم الفلَك والجُغرافية الفلَكية، يتكلّم في الأفلاك وما في حشوها[9]، وفي الميل والاعتدال وطبائع الفُصول وتأثيرها في الأبدان، كما يتكلم في التغيرات التي تَعْرِض للفصُول.

---

8) توفي ابن الخطيب مقتولاً في سجنه بفاس عام 776 هـ / 1374م.

9) احتفظنا بعبارة المؤلّف وألفاظه في بيان معظم مواضيع الكتاب الذي وَضع له ابن الخطيب فهرساً مفصّلا.

ـ الكليات التي تربط الفروعَ بالأصُول وتشمل الكلام على العناصِر التي يتركّب منها بَدَن الإنسان، وعلى المزاج والأخلاط والأعضاء والأرواح والقُوى والأفعال.

ـ الأمور الضرورية للإنسان : الهواءُ ومنفعته وتغيُّراته في نفسه، وتغيّراته لاختلاف الأمَاكن والبِقاع، وتغيّراته الخارجة عن الطبيعة.

ـ المأكول والمشروب : تقدير الحاجة إلى الغذاء والاغتذاء، تطور المطعوم المغتذى في بدن الإنسان وأفعاله، وجه استعمال المأكول، سوء مغبَّة الشهوات، أحكام ما يغتذى به وطبائعه، الكلام على بعض الأطعمة المطبوخة، نكت وأصول ترجع إلى مهنة الطبخ، ضرورية الماء ومنفعته في بدن الإنسان، أحكام أصناف الماء، استعمال الماء وغيره مما يُشرب.

ـ أحكام الاحتباس والاستفراغ، منافع الاستحمام ومضارّه، الصحة الجنسية.
ـ أحوال النوم واليقظة : حقيقة النوم واليقظة، منافعهما ومضارهما.
ـ الحركة والسكون البَدَنِيَّيْنِ : الرياضة وأنواعها وأوقاتها.
ـ الحركة النفسانية وما توجبه في بدن الإنسان.

مَوضُوعات الجُزء الثاني :

ـ اختلاف الأمزجة على الإجمال والتفصيل : حال المزاج المعتدل وعلاماته، حال المزاج الصَّفْراوي وعلاماته، حال المزاج السّوداوي وعلاماته.

ـ علامات الامتلاء.
ـ علاماتٌ تدلّ على اقتراب أمراضٍ يُتَحَفَّظُ منها قبل وقوعها.

- تدبير بَدن الإنسان بحسب ما يتوالى عليه من الفُصول الأربعة (الربيع، الصيف، الشتاء، الخريف).

- تدبير البَدن المنسوب إلى غلبة مزاجٍ من الأمزجة الأربعة في جميع فُصول السنة.
- تدبير الأَطفال الرُّضَعة (الرضعاء) إلى حَدّ الدَّعدعة[10].
- إصلاح أخلاق الطفل.
- تدبير الشيوخ الضَّرعة[11].

- تدبير المسافرين في البَرّ والبَحْر من حيث الغذاء والمشروب واتّقاء عوارض الطبيعة وما يصيب البدن من إعياء وحرٍّ وبرد.

أسلوب المؤلِّف :

ابن الخطيب - كما هو معروف - أديب بارع وكاتب تنقاد له المعاني والألفاظ، مع أنه كثيرُ الولع بالسجع الذي يبلغ أحياناً حدّ التكلف والتقعير. إلا أن طبيعة التأليف الذي نحن بصدده فرضت على المؤلف أن يلتزم الكتابة بأسلوب مُرسَل خالٍ من السجع إلا في خطبة الكتاب وفي أماكنَ قليلةٍ منه، ومع ذلك فإنّ عبارتَه تظل في كثيرٍ من الأحيان دون ما يقتضيه الموضوع من سهولة اللفظ ووضوح التركيب مما يوقعه في الإبهام أحياناً، ويُكلّف القارئ بعضَ المشقّة في استجلاء ما يقصده المؤلف، وابن الخطيب في هذا دون جلّة أطباء الأندلس من أمثال أَبي القاسم الزَّهْرَاوي (ت. حوالي عام 400 هـ)، وأَبي مروان بن زُهر (ت. عام 557 هـ / 1162م)، وابن

10) الدعْدَعة : الحركة والمشي، والعَدْو البطيء - رضعاء : جمع رضيع، ورضائع جمع رضيعة.
11) الضَّرعة : جمع ضارع وضَرِع، وهو الخاضع المنقاد، والمقصود الشيوخ الذين تضعف حيلتهم ويحتاجون إلى الرِّعاية.

خَلْصُون (ت. أوائل القرن الثـامن الهجري)، مـع أن ابن الخطيب قـد أفـاد منهم من حيث المادة العلمية كما استقى من ابن سينا وأضرابه.

هـذا وتغلَب على ابن الخَطيب موهبتـه الأدبيـة حينمـا يقتضي المقـام ذلـك فَيُغرق في اختيـار الألفـاظ الفخمـة المعبّرة ويُطنب في الـوصْف والتمثيـل والتشبيـه، ويـؤثر التصريح على التلميح لإصابة الهدف المراد، ومن أمثلة ذلك الفصلُ الذي يتناول فيـه التربيةَ الجنسية حيث يُعدِّدِ الدوافعَ الجسدية والنفسيـة المُعِينـة على الانسجـام الجنسي بين المرأة والرّجل.

فمن الدوافع النفسانية ـ كما قال ابن الخطيب ـ :
«الاحتيـالُ في رفع الخَجل، وفتـحُ أبـواب المبـاسطـة وتركُ الـوقـار، وإقـامـةُ أسـواق التعاشق والتشابك والتزامل، والإفاضةُ في العمل قبل الشروع، وإجراءُ الحـديث قبل الوقوع، وغزلُ خيوطِ المغازلـة وإنشـاب أنـامل المُراودة وترديـدُ[12] رسل الإشـارات، وضَحكُ العيون وغمزُ الأجفان وإظهارُ الشَّرَه. ويَعْضُد ذلـك من جهـة الأنوثـة الـدَّلُّ والغُنْج والتكسّر والانكساع والرّجرجة[13] والانعطاف والليّ والتألم والتباكي والتـأفُّف والعضّ والغمـز، وشفـوف الثيـاب عن الأعضـاء وتقلُّصها عن الأسـافـل، وجَعْجَعـة الشنوف، وتعرية الطّلاَ والأعناق[14].

«ومما يُحرّك الفِكَر ويوقظ الخيال الإفـاضـةُ والفِكْرُ في أمور الجماع وأحوالـه، والتفنُّن فيمن يَصْلُح لذلك من الأصناف كالحضريات بَيْضاتِ[15] النَّعيم وربّات التّرف وتماثيلِ

12) في ب : وترسيل.
13) الانكسار : الرجوع عن الطريق والمذهب. والرجرجة : الاضطراب.
14) الشنوف : جمع شَنف، وهو القُرط. والطُّلا : جمع طَلاة، صفحة العنق.
15) في أ ب : فيضات.

المقاصِر والأبهاء، (ذواتِ التّرائب)[16] المحشوَّة والخدود المصقولة والزّينة المتناهية والطيوب الذائعة والْحُلِيّ الرَّائعة، والظَّرْف المبتدي إلى اللّطائف الخفية والآماد البعيدة، والأطراف التي خنقتها الأسْورة والأحجال، والألسن التي تفننت في الألفاظ العذبة والنزعات الخنيثة والمَعاني الرَّشيقة.

والعرَبيات ظبياتُ [ظباءُ] الفَلاَ وحُورُ جَنَّات العُلاَ، ذواتُ الألوان الحُمر والخُصور المُخطَفة الهِيف، والثنايا البارقة، والشفاهِ المعسولة، والعيون النُّجل، المخصوصاتُ بالطيب الذائع، المحسوبِ من جملة الطّبائع، والحركاتِ الخفيفة والنفوس الشريفة، والمعاني اللطيفة، والفروج الناشفة، والمُقَبّلات العذبة، والأنوف القَويمة.

والمغرِبيات ذوات الشعورِ الجَثْلة والوجوهِ السّمحة والمباسم الحُلوة والشّفاه المعسولة اللّمَى والحُوَّة[17] والمعاصم التي كَمَّلت الوَذائلُ زَيْنَها ورَقَم نيال الوُشوم لُجَيْنَها.

وبنات الرّوم ذوات البياضِ الساطع، والثُّدي الناهد، والجسوم المخطَفة الشحوم[18]، المعتدلة اللّحوم المختالات في أقبية الدّيباج الضيقة، المُحلاةِ أزرَّتها وأطواقها بالحُليِّ الرائعة والخَرزات الثّمينة يَفْتِنَّ بغرابة العُجمة ويَخْلُبن بمستندر النزعة».

وها نحن نرى كيف خلع ابن الخطيب عذار الوقار الذي يُتَوقَّع من مثله، وأطلق العِنَان لقلمه يصوّر مفاتن الحضريات والبدويات والمغربيات والروميات من النّساء تَصْوير عارف خبير، وطبيب لا يتحرج من إسداء النصْح المطلوب من صاحب المهنة، ولا ينسى، في نفس الوقت، أنه أديب يفرض عليه المقام أن يُجَوِّد القلم وأن ينقاد لسلطان البيان، فتلكَ مهنته التي سمق فيها وبَرَّز.

16) عبارة ساقطة في ب.

17) في ج : والحلوة. والحُوّة من حَويت الشفة حَوّة : احْمَرّت حمرةً ضاربة إلى السواد.

18) في ج : الحشوم.

ويمكن القول إن ابنَ الخطيب قد تفوّق في هذا البـاب الـذي أفرده للصحـة الجنسيـة على من سَبقه من الأطباء، بل إنه قـد فـاق الأطبـاء المتخصصين في عصرنـا هـذا من حيث الإطناب في وصف الصّلات الحميمة بين المرأة والرجل وتصويرهـا بكامل الـدقـة والصراحـة حتى إنـه بلـغ حَـدّ الإشـارة، فلم يترك صغيرةً ولا كبيرة في هـذا الأمر إلا فصّلها، وكأنه أحسّ بذلك فقال في خاتمة المطاف : «وقد أمعَنّـا القولَ في هـذا الفَصْل حتى كـدنـا نخرج عن الغَرض، إذ جعلنـاه تَملُّحـاً منـاسبـاً لمـا يجري في أسمار الملـوك والمُتْرفين، ولعلّه لا يخلو من فائدة».

منهج المؤلّف :

استـوعب ابنُ الخطيب عنـاصرَ مـوضـوع التـأليف، وربـط بين جُـزءَي التَعريف والتصريف ربطاً يحقق الغرض الذي توخّاه، وشَرَحه في خطبة الكتاب بقولـه ـ بعـد الكلام على العنايـة بـاسترجـاع الصحـة بعـد ضيـاعهـا، وكثرة مـا ظهر في ذلـك من كنانيش العِلاج ودواوينه :

«ولو حُكّم الإنصاف لكان حفظُ الصحة أولى بالعناية وأحقّ بالإفصـاح والكنـايـة، إذ لـو حُفِـظ منهـا الغرض، ووُفّي المفترَض لقـلّ أن يروع سِرْبَهـا المرض، فظهر لي أن اعتنيَ بما غُفِلَ وأُهمل فما اعتُبر ولا تُؤمّل، وأن أقْصد وأُجمل، وأُتم وأُكْمل... أتحرّى أن يكون طوعَ يد الشادي والقـاصر، ومُحْسِبَ البـادي والحـاضر... فرتّبتُـهُ ترتيبـاً سهلَ المسالك على السـالك، قريبَ المأخذ على الناظر فيه والآخذ، يُمتِع بعجـائب الطبـائع وأسرارهـا، ويُلمع بقوى الأسبـاب القـاضيـة وآثـارهـا، ويرتّب حفـظ الصحـة بحسب الفصول والأزمان، ويُشيد بحكمة الرّحمن، ويقرّر على تعاقبها سياسةَ الأبدان، وينصح نصح الحبيب، ويُغني عن ملازمـة الطبيب، ويَحضُر عنـد نَصْب الموائـد، ويجيب إذا سُئل عن العوائد، ويُصلِح ضرر المفاسد... مستوعباً من أسرار الطبـائع المسخَّرة بـإذن

الله ما يَبهر العقلَ عجائبُه، ويهزم الشكّ في الله كتائبُه... فجاء جامعاً لما تفرّق في الأسفار، مثيراً للاعتبار».

والحقيقة أن الكتاب مستوفٍ لما ذكره المؤلف في خطبته، وقد سار فيه على منهج علميّ سليم بقدر ما وسعه الجُهد، واستقصى فيه مَعارف عصره في مسائل حفظ الصحة وتدبير بدن الإنسان في حال سلامته، فبدأ بالكلّيات مستقصياً ما يتعلق بالموضوع من تعاقب الفصول وما يحدث فيها من تغيّرات طبيعية ناشئة عن دورة الأفلاَك، مع بيان طبائع هذه الفصول وتأثيرها في الأبدان، ثم انتقل إلى الكلام على الضروريات التي لا تقوم حياةٌ بدونها كالهواء والشّمس والغِذاء والماء والنوم واليقظة، كما تكلّم على أهمية التربية الجنسية والرياضة في تقويم الأبدان وحفظ تَوازنها.

ويستعرض ابن الخطيب في جزء التعريف، أنواع الأطعمة الحيوانية والنّباتية وطبائعها ومنافع كل منها أو مضارّها، ويأتي بفصل طريفٍ عن أصول فنّ الطبخ، ومقوِّماته الأساسية.

وينتقل المؤلف في الجزء الثاني من الكتاب إلى الجانب العملي والتطبيقي من حفظ الصحة بحسب فصول السنة مراعياً في ذلك سنَّ الإنسان من الطفولة إلى الشيخوخة وما يطرأ عليه من عَوارض يقتضيها الاجتماع الإنساني كالسّفَر وركوب أهوال البَرّ والبحر.

وينتهي المؤلف بإثبات مُعجم يشرح فيه الألفاظ اللُّغَوية والاصطلاحية التي وردت في الكتاب حرصاً منه على حسن التبليغ، وقد وُضِعت الألفاظ في هذا المعْجم بالصيغة التي وردت في السياق من غير إرجاعها إلى أصلها الاشتقاقي، ورُتِّبت على حُروف المعْجم على النسق المعروف عند المغاربة.

فصول مختارة من كتاب الْوُصول :

وقد رأيت من الفائدة أن أنتقِيَ من الكتاب فصولا ومقاطع، مراعياً في انتقائها ما قد يكون فيها من طرافة وجدّة، أو فائدة علمية أو لغوية أو تاريخية يمكن أن تستأثر باهتمام الباحثين، على أن أقدِّم هذه النصوص محقَّقة ـ اعتماداً على النّسَخ الأربع التي بين يَدَيَّ[19]، مع شرح ما يقتضي الحال شرحه من ألفاظ وعبارات، تاركاً تقديرَ النصوص من الناحية العلمية لأهل التخصص من الأطباء وعلماء النفس وغيرهم.

1 ـ جُزْء التَّعْريف

تأثير الفُصول في الأَبدان :

«اعْلمْ أنّ الله ـ جل جَلاله ـ خلق العالم منتظماً مرتبطاً، وجعل بعضه سبباً لبعضه أو كالاً له، فكما أنّ الفصول انقسمت بحركاتِ الأجْرام العُلوية وتعيَّنت طبائعها من حارٍّ

19) اعتمدنا في انتقاء الفُصول وتحقيقها على أربع نسخ محفوظة بالخزانة الحسنية في الرّباط وهي :
أ) نسخة برقم 797، وهي بخط مغربي مليح. جيدة في الجملة، لم يرد فيها اسم الناسخ ولا تاريخ الفراغ من كتابتها.
ب) نسخة برقم 590، وهي بخط يد الطبيب أبي القاسم بن محمد الغسّاني الشهير بالوزير، انتسخها في شعبان عام 978 هـ برسم خزانة السلطان السعدي ابي محمد عبد الله بن محمد المهدي الشريف الحسني، وهي نسخة جيدة لولا ما بها من خروم.
ج) نسخة برقم 77، وهي بخط أبي عبد الله التطاري، فرغ من نسخها في 27 رمضان عام 1291.
د) نسخة برقم 979، وهي بخط أبي عبد الله محمد بن محمد بن موسى الخليفي، فرغ من نسخها في شهر ذي الحجة عام 1000 هـ.

وبارد ورطب ويابس، فكذلك عالَم الكون والفساد المرتبطُ بالعالم العُلويّ المتأثرُ عن آثاره العُلوية، المعلولُ بعِلَله القصية، اشتمل منه مُقَعَّر فلكِ القَمر على عناصرَ لكلّ مكوَّنٍ من معدنٍ ونبات وحيوان أربعةٍ كأربعةِ الفصول ذواتِ طبائعَ أربع كطبائعها، منها اثنان ثقيلان : الماءُ والأرض، واثنان خفيفان : النار والهواء.

فالأرض يابسة كفصْل الخريف، والماء بارد كفصل الشتاء، والهَواء رطب كفصْل الربيع، والنار حارة كفصل الصيف، ويقع الاتصاف بالتَّركيب كما مَرَّ في الفصول[20] فتحصّل بهذه الحكمة الإلهية فعلُ الأقصى في الأدنى وانفعالُ الأدنى عن الأعلى، وكان لكلٍّ ركنٍ أصلٌ يحفظ عليه طبعه ويَكُفّ عنه ضُرَّه، فعندما قَويَ سلطان الفصل تَبعته أجزاءُ عالمِ الكون مثل أن يدخل فصل الشتاء فَيُبرد الأرْض ويُجمِّد الرطوبات أو يَقْوَى الحرّ فَيُسيلها أو تَقْوَى الرطوبة فتكثّفها أو اليُبْس فيجفّفها. وبالجملة فآثار الفصول في أمزجةِ أنواعِ الحيوان لا يخفى للحسّ، وكلامنا في الإنسان الذي يتحرَّك باستحكام فصْل البرد أمراضُه الباردةُ كالخَدَرِ والجمود والأوجاع الباردة، وتصلح منه الأمزجة التي يُضادّها طبع ذلك الفَصْل - وهي الحارّة - ويتحرك باستحكام فصْل الحرّ الأمراضُ الحارَّة من الحمّيات والرَّمَد والصُّداع والأوجاع الحارة، وتصلح الأمزجة التي يضادّها هذا الفصل[21] وتتحرك باستحكام فصل اليُبْس الأمراض اليابسة من المالنخُولْيا[22] والجَرب والوسواس، وتصلح الأمزجة التي يُضادّها هذا الفصل وتتحكّم باستحكام فصْل الرطوبة الأمراض الدموية من الأورام والدماميل والحمّيات المُطبقة واندفاعِ الرطوبات إلى الأمعاء، وتصلح الأمزجة التي يُضادّها طبع ذلك الفصل».

---

20) يشير المؤلف إلى الباب السابق الذي تعرض فيه لطبائع الفصول وما يكون فيها من برد أو حرّ أو اعتدال.

21) في ب : طبع ذلك الفصْل.

22) يرد في الجزء الثاني من الكتاب مُعْجم يشرح المصطلحات الطبية، وهو ما سنلخّصه في القسم الثاني من هذا العَرض في عدد قادم من المجلّة، إن شاء الله. وقد اقتصرنا على شرح بعض المصطلحات الطبية التي لم ترد في هذا المُعْجم.

تغييرات تَعرِض للفصول :

«إن الفصُول، لَمَّا تعَيّن وجودها وأمزجةٌ تخُصُّها، كانت تقبل التأثيراتِ كما يقبلها غيرها مما له طبْعٌ أو ما تَغْلِب عليه كيفية، والتغييرات التي تَعرض للفصول مُخْرِجَةٌ إياها عن أمزجتها الطبيعية إما عامةٌ تَطْرُقها بحسب الأمور الفلَكية، أو خاصّة بالمساكن بحسب أوضاعها، والأول يتغيّر به الفصل في نفسه، والثاني يتغيّر بحسب ما يجد أهلُ البلد من تأثيره، وقد يجتمع التغيُّران بحسَب البَلد.

فأما أسباب التغيّراتِ العامة فأمورٌ تَحْدث في الأفلاك عن اقترانِ كواكبَ وتقابلِ نَيِّراتٍ أو أشِعَّة تقتضي مطارحُها تأثيراتٍ، أو قرب أحدِ الكواكب من الشمس أو استقامة أو رجوع من حركات الكواكب في أفلاك التّدوير... مما ادّعى أربابُه صدقَ التجربة فيه، بإذن الله، وأنه تظهر عنه أمطارٌ في أزمانها خارجةً عن المعتاد أو في غير أزمانِها مُغَيِّرة لطبيعة الفصْل، أو غيرُ أمطار من رياحٍ جنوبية أو شمالية تُثير أولاهما تسخيناً كثيراً مناسباً للفصل أو مخالفاً، وتثير ثانيتُهما برداً كثيراً مناسباً، وأمثال هذا.

وأما التغييرات الخاصّة بأوضاع البلد مما تتغير طبيعةُ الفصل فيه فكالبلاد التي تكون مجاورةً للجبال الشمالية فإنها تُغَيِّر فصلَ البرد إلى برد أشدّ وطبعَ الحرِّ إلى أنقصَ، وكالبلاد الجنوبية التي تُغيِّر فصلَ الحرّ إلى حرّ أزْيَدَ وفصلَ البرد إلى برد أنْقص، وللبلاد البحرية وللصحراويات والسَّبائخ في هذا أحكامٌ نستوفيها في الموضع الذي يليق بذلك إن شاء الله.

فإذا عَلِمَ حَالَ الفصْل وبقاؤه على أصْل طبْعه أو خروجُه عنه ـ إما لأمرٍ فلكيٍّ أو عارضٍ وضعي ـ دُبّر فيه حفظُ الصحة بما يليق، وعلى الإجمال فإنّ الحالَ الطبيعية في

الفصول التي قَوامها بها هو أنْ يكون كلُّ فصْل محفوظةً عليه كيفيتُه غير مَشوبة ولا متغيّرة، فيكون الصيف حارّاً والشتاء بارداً والربيع معتدلاً، وربما غَيَّرت طبعَ الفصل كيفيةٌ غلب سُلطانها عليه فأعاده إلى الصلاح تغييرٌ يُضَادُّه، والسَّنَة المستمرةُ الفصول على كيفية واحدة سنةٌ رديئة كأن يكونَ طبعُ السنة، مع اختلاف الفصول، منسوباً إلى اليُبس أو البرد أو الرطوبة أو الحرارة، فإنَّ مثلَ هذه السنة تكون كثيرةَ الأمراض المناسبة لكيفيتها ثم تطول مُدَدها.

وأصحُّ الفصول هو أن يكون الخريف مطيراً والشتاءُ معتدلا ليس عادماً للبرد ولكن غيرُ مُفْرِط فيه بالقياس إلى البلد، وإن جاء الربيع مطيراً ولم يَخْلُ الصيف عن المَطر فهو خيرُ ما يُفْتَرض في ذلك.

الأمور الضرورية للإنسان :

الهواء : «قد تقدّم أنّ جسماً بخارياً يتولّد في التجويف الأيسر من القَلْب يُسمّى روحاً حيوانيا[23]، وتقدم أن الروح ـ الذي هو سبب حياة البَدَن ـ أحرُّ أجزاء البدن، ولشدة حرارته واحتقانه تزيد حرارتُه بطول الزمان شأن الحرارة المستولية، ولِلُطْف مادّته يسرع قَبولُه للتحلّل ويلزم الموتُ مع نهاية تحلُّله، فهيأ الله له ما يمنعه من التزايد والاشتداد بطول اللّبث ويُعَدّل حَرّه إذا أُفرط بالاحتقان وينقّي ما

23) شرح المؤلف في الباب الخامس من القاعدة الثانية ما يقصده الأطباء بالأرواح، وهي عندهم ثلاثة : روحٌ طبيعي وروح حيوانيّ وروح نفساني، ومُرادهم ـ بلغة هذا العصر ـ ما يحفظ الحياة والنموّ والحركة في بدن الإنسان كالجهاز العصبي والجهاز التنفسي والدورة الدموية... (يراجع في هذا الباب الكتابَ الأول من قانون ابن سينا، والباب الذي يتعرض فيه الشيخ الرئيس للأخلاط والأعضاء والأرواح والقوى الحيوانية والنفسية في أرجوزته الألفية المشهورة).

شاب جوهرَه من أجزاءٍ احتراقيـة، وهو الهـواء المبَـاشَر بـالاستنشـاق المُجَـدَّد بحركـة التنفّس، إذ كان الهـواء بـالنسبـة إلى مـزاج الرّوح بـارِداً وجعلــه ـ كما ذُكِر ـ واصلاً بواسطة الرئة وأنابيبها لما منه في القلب وبواسطة المسامّ المبثوثة في سائر الجلد إلى ما استقرَّ منـه في تجـاويفِ الشرايين، فـإذا جـاوره في الرئـة والشرايين أو خـالطـه مـع اتّصافه بالصلوح لذلك عَدَّله وبرَّده ومنعه من الاشتـداد وحَفِـظ عليـه مزاجـه الـذي تستقيم به حـالـةُ الحيـاة مـدَّةَ العمر. ولَّـا كان مـا يصل إليـه من الهواء يستحيل إلى المُحْتقن ويصير إلى [مثل][24] مـا اتّصل بـه إذا فعل فيـه الاحتقـان فيخرج عن طبع البرودة إلى ضِـدهـا، خلق الله لـه الآلاتِ الكيريـةَ ليكون متتـاليَ الورود والخروج بحركـة التنفّس على الـدوام، واستلـزم إخراجُ الهـواء المحتقن منفعـةً عظيمـة، وهي مـا يستصحبه الهواء الخارج من الفضول الدّخَانية[25] التي أشرنا إليها. فقـد بـان أن الهواء الخارجَ عن البدن المحيط بالإنسان أحدُ الأمور الضرورية له في بقائه».

تَغَيُّر الهواء : «ولـما كان الهواء ربمـا بقيَ على أصلـه بحسب الفصول والأوضـاع التي تستصحب معها الحالة الصحية للروح، وربما خرج عنها لتغيُّرٍ يعتريـه وجب اعتبـارُ ما يعتريه من التغيّرات، وتغيّراته منها طبيعيةٌ ومنها غير طبيعية. **فالطبيعيـة** هي التغيّرات التي تَطْرُقه بحسب الفصول مما يتّصف له بالاعتدال وبالحرّ والبرد والرطوبة واليبس، **وغير الطبيعية** تكون لأمورٍ سماوية أو أرضية، فالسماوية كالـذي يَحـدُث فيه تبعاً لمقارنة الشمس بعضَ الكواكب أو مقارنتها لِسَمْت الرؤوس أو حلولها ببعض البروج، ومثلُ هذا مما يَتَزَيَّد لأجله كيفيةٌ من كيفيات الهواء، ويَنْظُر هـذا في كتب النّجوم الأحكاميـة من تَشَوَّف إليـه، والأرضيـة كالريـاح إمّـا مطلقـاً، كما يتبع الريحَ الجنوبية الحرُّ والرطوبة لمرورها بالجهة الحارّة الكثيرة البُخار والشمالية بضدّهـا، فـإن الهواء يتغيّر لذلك برداً وسخانـةً بمـا لاخفـاء بـه، وإمـا بحسب البقَع، فربمـا اتفق أن

24) كلمة ساقطة في أ، ج.

25) يقصد بالفضول الدخانية ما يسمى اليوم بثاني أكسيد الكربون.

تكون الجنوب الحارّة أبرد من الشمال الباردة إذا مرّت بجبالِ ثلجٍ باردة أو بحار، وأن تكون الشمالُ الباردة أحرَّ من الجنوب الحارّة إذا مرّت ببَرارٍ محترقة يابسة، وعلى هذا يجري القياس في الشرقية المعتدلة والغربية».

«والمقصود الآن ما يوجبه هواءُ كلِّ إقليم في أمزجة ساكنيه، فالبلاد الحارّة جداً مُسَوِّدة للأبدان مُفَلْفِلة للشعور مُضعفة للحرّ الغريزي يسرع فيها الهَرم، والمساكن الباردة بالضدّ، [والمساكن الرّطبة أهلها لَيّنو الجلود لا يُفرط بهم حرّ الصيف ولا برد الشتاء، والمساكن اليابسة بالضد][26]، ويتغير بحسب المساكن من جهة ارتفاعها وانخفاضها، فالمرتفع أبرد من المنخفض، والكائن في قُنَّة[27] الجبال أشدّ برداً والذي في الغَوْر أشد حراً، أو بحسب وضع الجبال من المساكن، وهو يؤثّر من جهتين : أحدهما بِرَدِّ شعاع الشمس عليها ومنعته، والثاني بِمَنْع الرياح، فإن كان الجبل مَغرباً أو شمالا من البلد انعكس شعاعُ الشمس عليه ومنع عنه الريح الشمالية والغربية فيكون أسخنَ مِمَّا الجبلُ منه بخلاف ذلك في الأمر الأكثر، ويتغير بحسب وضع البحار من البلدان، فما جَاور منها البحار كان هواؤه أرطبَ وأغلظ مما لم يجاورها، وإن كانت البحار شماليةً عنها أوجبت زيادة تبريد، أو كانت جنوبية كَسرت من حرّ الجنوب وزادت في غلظها، ويتغيّر بحسب التُّربة[28] من الأرض، فإن كانت حجرية أو رملية كان هواؤها يابساً سريعَ التسخين سريعَ التبريد، أو كانت حَمَإِيَّة[29] وسَبْخية كانت رطبة، وإن كانت معدنيةً غَلَبت عليها قوةُ ذلك المعْدن الموجود، وجميع ما ذكرنا من أصناف التغيّرات ليس معدوداً فيما يُضادّ الطبيعة، والذي يُضادّ الطبيعة نذكره بحول الله».

---

26) ما بين معقوفَيْن ساقط في ب.
27) في أ : أقنة، والقُنّة أعلى الجبل، والجمع قُنَن وقنان.
28) في ب : الرتبة، وهو تصحيف.
29) حماية، نسبة لحمأ أو الحمأة، وهو الطين الأسود المنتن، وقد وردت في ب : حماءية، والصواب أن ترسم هكذا : حَمْئية كسبئية من سبأ.

ج) التغيُّرات المضادّة للطبيعة من تغيُّرات الهواء.

«ولَمَّا كان الهواء بحراً محيطاً بما خلق الله في الأرض إحاطة بحرِ الماء بما فيه من المخلوقات أُلْفِيَ ذلك البحرُ الهوائيُّ يحدث فيه وفي جواهره ـ وهي الرّطوبات المبْثوثة فيه ـ ما يَعرِض لبرك الماء المستنقع من الأسَنِ والتّعفين وتغيّر الريح والطعم، وهو الذي ينطلق عليه اسم الوباء، إما فاشياً في العالم أو أكثر العالم كما وقع على عهدنا من الوباء العام[30] الذي استأثر بنحو سبعة أعشار الإنسان ـ زعموا ـ أو في بعضه دون بعض، أو يكون التغير المُفسِد في كيفية الهواء فقط، فيفرط ـ مثلا ـ حرّ الصيف أو برد الشتاء لأحد أسباب ذلك حتى يخرجَ إلى حدّ الفساد المخالف للطبيعة، وإذا اتّصف الهواء بالصفة الوبائية أفسد الحياة بتعفين الروح الذي في القلب لشدة مجاورته ومخالطته له، وكذلك يضرّ بالنبات والأشجار فيضر بما يعتلفه من البهائم ويضر من يأكلها من الإنسان بظهور الحُمَّيات العفنة والجُدَري والطواعين، وإذا اتّصف بانحراف الكيف كان مفسداً في كيفية الحرّ بالتحليل وإضعاف القوى، وفي كيفية البرد بإماتة الروح وإطفاء الحرارة الغريزية، فيجب ملاحظة أحوالِ الهواء لما قرَّرناه من ضروريته وما يَحدث عن تغيرات تَلحقه، والحيلة بمقاوماتِ ما خرج إليه من الكيفيات لِئلاَّ يُؤذيَ الروح، إما بما يُضادّ الكيفية الفاسدة أو يُصلح الكمية[31] بالانتقال إلى غيره مما لم يفسد.

وقد كنا عند اضطراب النَّاس في أمر الطاعون العام أملينا يوماً بباب السلطان على من به من الأطبَّاء مقالةً نبيلة هي اليومَ مشهورةٌ شائعة».

30) في أ : ج : على عَهْد من.... يشير المؤلف هنا إلى الوباء العام الذي ضرب معظم أقطار البحر الأبيض المتوسط عام 749 هـ ، وقد خصّه أحمد بن خاتمة الأندلسي (ت بعد 770 هـ / 1369م) برسالة سماها : «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد». وهذا الوباء هو الذي دفع بابن الخطيب إلى تأليف رسالة في الطاعون، كما تقدم.

31) في أ : الكيفية.

د) الغذاء :

«إن شأن ما يُتناول من مطعوم أن يَحصل له في الفم عند المضغ هضم مَّا، ثم يستقر في المعدة وتشتمل عليه اشتمال الزنبيل الذي يوعى فيه القوت فيُطبخ بحرارةٍ بَثَّها الله في قعر المَعدة لمكان لحم [هناك][32] ولِما يحفّ بها من أعضاء حارَّة حتى يتهرأ ويختلط، وقد أخذ الله - جلّ وتعالى - باب المعدة الأسفل بالانسداد إلى أن يأذن له بالانفتاح وحَلّ يد القوة المسكة بقَدَر لينفذ الطعام بعد أن صار كيلوساً إلى ما وراء المعدة من الأمعاء، وعند ذلك تجتذبه العروق المتّصلة بَيْن الكبد وبَين الأمعاء، وتمصّ صفوَه وتترك نفايته فَضلةً تندفع عن البدن، ثم إذا بلغ الكبدَ صفْوُ الغذاء وتَحصَّل منه في العرق المسمَّى بالباب[33] ثم تفرع في فروعه الداخلة إلى الأجوف - ورطوبة الماء المشروب أو ما يقوم مقامه تُرقّقه وتُنفذه - انهضم في الكبد انهضاماً ثانياً يتكون عنه كيموس وخِلْط... وعند خروجه من الأجوف تَمص الكُلْيَة فيه المائية[34] وتَصُبّها في المثانة، وسائره يسري في العروق دماً مصفًى يمد الرطوبات المحصورة في تجاويف الأعضاء التي تسقيها والمبثوثة في الأعضاء الأصلية كالطلّ والرطوبة التي صارت جزءاً من العضو في مزاجه وقوامه، والرطوبة المداخلة للعضو التي بها اتصلت أجزاؤه وانحفظ تشكيله، فإن كان المطعوم المستحيل دماً، كان الكائن بالقوة القريبة من الفعل عضواً معتدلاً في كَمِّه وكيفه بحيث لا ينفعل عنه البدن إلى كيفية خارجة عن طبعه ولا يزيد أيضاً على مقدار حاجته فيحاربه وتشتغل قُواه بمدافعته أو صرفه إلى أفضيةٍ وتجاويفَ تَخزنه بها حتى يَطرقه ما يَطرق المختزن في الأماكن المغْفلة من الفساد والتعفّن، أو لا ينقص عن الحاجة فيذبُل البدن استقامت به الحال الصحية وجرت على معتادها، وإن كان بالضدّ كان الأمر بالضدّ من عَوْدِه

32) ساقطة في ب.

33) الباب، ويقال البواب وهو فتحة في أسفل المعدة متصلة بالمعي الاثنى عشري، بالفرنسية Pylore وبالانجليزية Pylorus :

بالعلل الصعبة وإخلاله بآلات الهضم إخلالَ الحبوب المغشوشة بسطوح الأرْحية حتى لا تفعلَ أفاعيلها.

هـ) آثار الغذاء في بَدَن الإنسان وأفعاله :

«المأكول والمشروب يفْعل في بدن الإنسان بوجوده إما بكيفيته كأن يُسَخِّن البدن أو يبرده أو يرطِّبه أو ييبسه، وإما بصورته وهو أن يفعل فيه فعلاً من جنس هذه الكيفيات كالأدوية المسهلة، وإما بعنصره وهو أن يصير جزءاً من الأعضاء ومتشبها بها، وهذا هو الغذاء المقصود بالكلام الكلّي في هذا الموضع. ولا يخلو الغذاء من أن يكون لطيفاً أو كثيفاً أو معتدلا».

«فاللطيف هو الذي يتولد منه دم رقيق، والكثيف هو الذي يتولد منه دم غليظ، والمعتدل هو الذي يتولد منه دم معتدل، ويقال أيضاً : إما قليل الغذاء ـ وهو ما يتولَّد عنه دم يسير ـ أو كثير الغذاء ـ وهو ما يتولد منه دم كثير ـ أو معتدل، وهو الوسط، ويقال أيضاً إما سريع الاستحالة إلى الدم أو بطيء الاستحالة إليه أو متوسطٌ بينهما، ويقال أيضاً إما رديء الكيموس وإما حسن الكيموس».

أصولٌ ترجع إلى مهنة الطبخ

«فأولها أن تَعلم أن الوسائلَ بين القوة والحيوانية إذا اعتدلت ولم تطرقها الشهوات الخارجة عن الاعتدال جملة، ولا أعظم من الحلاوة وطيب الرائحة، فأما الرائحة الطيبة فلقربها من طبيعة الروح، وأما الحلاوة فلكونها صفةَ طَعْمِ الدم المعتدل الذي هو غذاء الروح، وبعده ما اتَّصف بالدسم والتفاهة».

«قالوا : الأغذية تكتسب قبلَ الطبخ طعوماً وكيفياتٍ من طريق ما يخالط دمَ ما له دمٌ أو يتلوث به من فضله أو يجاوره من ذي كيفية غريبة، وإصلاح ذلك العسل ولقط ما تعلّق به، فإن كانت الكيفية مَرَارةً أو عُفوصة أو حَرافة أو مُلوحة فالسلق بالماء يُذهب ذلك، وإن كانت رائحةً رديئة فالأبازير الموافقةُ تُصلِح ذلك، وما لا تُذهبه الأبازيرُ من الكيفيات أذهبه الخلّ والكزبرة الرطبة».

«قالوا : والأبازير لا تنهضم من قِبَل الطباع، وَلِما يسري منها حريثاً في الأعضاء مَضَرَّةٌ كبيرة، وحقُّها أن يُنْعَمَ سَحقُها ويُلقى في الطعام لأول أمره حتى تَنضج بنضجه لئلاّ تُحاربها الطّباع إن بقيت فِجّة، وإن كانت رطبة لا تقبل السحق عُصِرت وأُخذ ماؤها، وبالجملة فالأبازير عَسِرةُ الانهشام على الطباع وغريبةٌ في المأكول».

«وقالوا : ما كان من الطعام حريفاً لَذّاعاً قحلا جافاً فالزيت والدهن يُصلحه ويَكْسر حدّته، وما كان لا طعمَ له فالخلّ والأبازير تُطيّبه، وما كان زَهِماً بارداً فالملح يُصلحه».

«وآفات الطبيخ حَرْق النار وقَذَر[35] الأواني وكثرة الأبازير فيما حَقُّه أن يُقلَّل فيه، وقِلّتها فيما حَقّه أن يُكثر فيه. وسهولة اللحم لا يُزيلها إلا السّلق والتنقية ثم نزْع الرَّغوة عند الطبخ بالمِغْرفة المُثقبَة التي تمسك الرغوة وترسل المرق. واللحم المهزول صلاحه أن يُسلق قبل طبخه».

«قالوا : وأجود النَّار نارُ الفحم وبعدها النار من الحطب اليابس إذا استوت وسَكَن لهيبها ودخانها».

---

34) المائية : يعني السوائل.

35) في ج : وقدر.

«وقالوا : أفضل الأواني ـ لو امكن اتّخاذه ـ الذهَب ثم الفضّة، وبعدهما الفخار ثمّ الحنتم[36]، وأن يطبخ في الفخّار مرةً وفي الحنتم خمس مرات، وكَثْرَة الطّبخ بها يُكسب الطعام سُمِّية[37] مُهْلِكة، وأواني الحديد تُقَوِّي الأعضاء الباطنة، والنّحاس يفسد المزاج، وخصوصاً ما قُلِي فيه، وأواني الرّصاص والقصدير جيدة إلا أنها يبطئ فيها الطبيخ».

«قالوا : وينبغي ألاّ يغطى بعد جعله في الأغذرة[38] أو قبلها إلا بما يُنفّس عنه البُخار، وأن تكون أغطية القدور مُثْقَبة ثُقْباً خفية، وهذا الحكم يتأكّد في أطعمة الحوت».

«والمختار للقلي أواني الرّصاص والقَصْدير».

«ومظان السموم المُخَلَّلات، وأولاها بذلك الحلاوات. ومن المأمون النفع من جميع السموم حجر البازْهر وحجَر الزمرّد، [فيستف من مسحوق الزمرّد][39] تسع حبّات، ومن البازهر أربع حَبّات شعير.

الماء :

«الماء ركنٌ من أركان البدن... إلا أنه اختصّ وحده من بينها بدخوله في جملة ما يتناول الإنسان، وهو إن كان داخلاً في جملة ما يُتناول فإنه لا يغذو، إذ الغاذي لا

36) الحنتم : هو الخزف الأسود أو الأخضر.

37) سُمية : ما يسبب التسمم.

38) الأغْذرة : هكذا في جميع النسخ، والصّواب ـ فيما يبدو لي ـ الأغْضرة، جمع غَضَار بفتح الغين المعجمة وبالضاد. والغَضار ـ كما في لسان العرب ـ الصفحة المتخذة من الطين الحرّ. وقال الثعالبي إن الغضارة كلمة مولّدة.

39) عبارة ساقطة في ج.

بدّ أن يستحيل إلى طبعِ ما يغذوه [ويقبلَ صورتَه، والجسم البسيط لا يستحيل إلى قَبول صورةٍ دمَوية أو عُضوية][40]، لكنه ضروري في تنفيذ الغذاء وتوصيله وبَذْرقته[41] وتسهيلِ جريه في العروق الضيّقة والمخارج بحيث لا يُستغنى عنه في ذلك أو عمّا ينوب مَنابَه. فكما أنّ الطبيب يجعل في الدواء المركَّب دواءً لا غرض له فيه إلا أن يوصل الدواءَ إلى الموضع الذي يريده ببعض قوى المُوَصِّل، كأن يركِّبَ دواءً إلى المثانة فيجعلَ فيه شيئاً من الذراريح[42] التي لا تَقصد إلى غير المثانة فتحمل معها الدواء، فكذلك جعل اللَّطيفُ الخبيرُ - وله المثل الأعلى - من جملة منافع الماء التوّصلَ للغذاء وإنفاذَه إلى الكبد وإجراءَه في العروق إذ كانت أكثر تلك المجاري ضيقةً لا يَنفُذ فيها جِرم الغذاء لولا الماء، حتى إذا استولى طبخ الكبد وعروقها عليه مَصّت الكُلْيَة الماءَ المَوَصّل وطرحته بَوْلاً بعدما استصحب في حال انصرافه بقيةَ دمٍ تغتذي منه الكُلية والمثانة كي لا تعدم المصلحة مشيعاً أو مودعاً. ولولا انْصرافه عن البَدن لأفرط استنقاع الأعضاء وكان الاستسقاء الذي يَعْرض إذا تعطَّل فعل الكُلية. والماء مع هذا المقصَد يَبلُّ الأعضاء بالمجاورة ويَقمع الحرّ، فكان ضرورياً بهذا الاعتبار.

أحكام أصْناف المَاء

«قالوا : أفضل المياه مياهُ العيون، وبخصوصِ العيون الحُرّة[43] الأرض، وهي التي لا يَغلب على تربتها شيء من الكيفيات الغريبة، ولا كلّ عينٍ حُرَّةُ التّربة بل التي تكون جارية، وبخصوصِ المكشوفة للشمس والرياح، وبخصوص الطينية المَسيل من

40) عبارة ساقطة في أ.
41) البذرقة : الترقيق.
42) الذراريح : جمع ذراح، حشرة حمراء منقطة بسواد، تطير، أكبر جرماً من الذباب، وهي من السموم.
43) الحرة : الخالصة من الشوائب.

غير وجـود حَمْـأة وهي خير من الحجَريـة، وبخصـوصٍ مـا كانت جرْيتـه بمـاءٍ غَمْرٍ، وبخصوصٍ ما كان شديدَ الجرية، وبخصوص إلى الشرق، وبخصوص إذا بَعُد من مفجره ثم مـا توجـه إلى الشمال بخلاف المتوجِّـه إلى الجنـوب والمغرب فهـو أردأ لا سيما عنـد هبوب الجنوب، وبخصوص مـا انْحَـدر من مواضـع عـاليـة، ثم [مـا][44] خِيـلَ مـذاقُـه الحَلاوة وكان خفيفَ الوزن سريعَ القَبول للتبريد والإسخان، وبارداً في الشتـاء حـارّاً في الصيف، لا يغلب عليه طعمٌ ولا رائحة، سريعَ الانحدار من المعدة سريعَ طبخ مـا يُطبخ فيه، ويختبرونه بخرقتين أو قُطنين متساويين تُبَلاَّن، وكذلك في سرعـة النشف واليبس».

«والتصعيد والتقطير يُصْلِح المياهَ ودونه[45] الطَّبخ».

«ومن المياه المختارة ماءُ المطر، وبخصوصٍ المطر الصيفي ثم ما كان عن سحـابٍ راعـد، إلا أن العفونـة تُسرع إليـه لرقّـة جـوهره ولطـافتـه وقَبـولـه لـذلـك التـأْثير الأرضي والهوائي، وربما أصلحه الطّبخ».

«ومياه الآبار رديئة بالنسبة إلى مياه العيون لاحتقانها ومخالطة الأرضية واستعـدادهـا إلى قبول الفساد والمطاولة، وشرّها وأضرّها بـالأمعـاء مـا أجرى في قنـا[46] الرصـاص وأنابيبه».

«وماء النَّزِّ شَرٌّ من مـاء البير ـ والنزُّ هو المجتلب من التراب ضعيفـاً ـ وأكثر مـا يكون النزّ في أرضٍ رخوة رديئة».

---

44) [ما] : ساقطة في ب.

45) في ب : ودونها.

46) قنا : اسم جنس جمعي، مفرده قناة، والجَمْع قنوات.

«ومياه الثّلج والجليد غليظة».
«والمياه الراكدة غير المحجوبة من الهواء والشمس ثقيلة رديئة تولِّد أمراضاً صعبة، والراكد على كلّ حال ضارٌّ بالأحشاء، وما لا يجري فهو ثقيل».

«والمياه العَلَقية رديئة. وما يجري على المعادن يكتسب قواها، فالحديدية تُقوِّي الأعضاء الباطنة، والنحاسية تُفسد المزاج، والماء المِلْح يهزل ويقشف وييبس الدم، والمياه الحَمِّية[47] تضرّ الشبّان وأرباب الأمزجة الحارّة لقوى الكبريت، وتَصلح بالمشايخ والمبرودين، وتجلو الجلود وتُحمِّر الألوان، والنشادرية لا تصلح للشرب وهي تطلق البَطن، والشَّبِّيَة (منسوبة إلى الشبّ) كذلك، وتنفع من سيلان الطَّمث والرطوبة».

«ومياه الجَمْد والثَّلج إذا كانت نقيةً فالذي يُحلَّل للشرب أو يُطرح منه في الماء أو يُبرد به من خارج صالحٌ، وإن كانت غير نقية أجزأ منها التّبريد من خارج».

«والماء البارد المعتدل المقدار أوفق المياه للأصحّاء مع إضراره بالعصب وأورام الأحشاء، والماء البارد يشدُّ المعدة وينبّه الشهوة، والحارّ يُفسد الهضم ويذبل البدن، والفاتر يغثي، والذي فوقه في الإسخان إذا شرب على الريق غسل المعدة الكثيرة الرطوبات».

بعض الأشربة ومنافعها :

جرت عادة الأطباء في هذا المحلّ أن يذكروا الشراب المسكر وتناول أنواعه وتقرير اختياراته وما يليق بكل واحد واحد من الأمزجة أن يدبَّر به منه وأشتاتُ نُقْلِه وما

47) المياه الحمية، منسوبة إلى الحَمّة : عين مياه تنبع من الأرض حارة يستشفى بها.

يدفع مضرته والكلام على منافعه النفسانية والبدنية، وقد كان ذلك يَسوغ لنا من حيث إنَّ هذه الصناعة عامةٌ لمن تُسَوِّغ له نِحْلته استعمالَ الشراب ومن لا تُسَوِّغ له نحلته ذلك، أو من حيث يكون لمجتنِب السكر من أهل الكتاب لا حرج عليه فيما يُسَوِّغه لهم دينهم، إلا أننا نزّهنا الكتابَ عن ذلك إجلالاً لمحل من رفعناه إليه وقصدناه بنصيحته، ومناسبةً لما تحلّى به من صادق الورع واتّصف به من أصيل الفضل وتميَّز به من اجتناب الشبهات، والملك سوق فما نفق فيه انتفق... ونجتزئ في هذا المكان بذكر أشربةٍ تقوم مقام ما عَدَلْنا عن ذكره مما يتّصف بالحِلِّيَة.

«فما فيه الخلاف الشهير[48] الأنبذةُ، وهي تُسخن البدنَ والمعدة والكبد وتُدرُّ البول وتُطلق البَطن، وكذلك ما جرت عادة الفضلاء بإطرائه من الربوب المتَّخذة بجبال الريف من أرض المغرب، ولها مع ذلك أن تَسرّ النفس وتُطربها بما تثير من سخونة، والعصير المجعول فيه أصل الكَبَر[49] مما يُتَّخذ ببعض بلاد الأندلس فمنعه من الغليان وكذلك الصِّناب[50] وربما أضيف إليهما الأدوية المُفْرِحة وكلاهما يَهضم ويسخن وما جُعل فيه المُفرحات يُفرح ويَطرد الرياح ويُعين على الباءة، والفقّاع المتَّخذ بالبلاد المشرقية من الشعير والزبيب والأرز والحُوَّارَى والخمير صالح لإدرار البَوْل وتسكين الصفراء، ويُجعل فيه الكَرفس والنعنع فيصلح بالمبرودين».

«ومن الأشربة التي تصلح بالمحرورين في هذا الباب السكَنْجَبين وشراب الحصرم والحمّاض والجلاَّب والرّمان وشراب العسل وماء العسل والماء الممزوج بالعسل والسكّر مما يصلح بالشيوخ والمبرودين.

48) الظاهر أن المؤلف يقصد الخلاف الفقهي في مسألة النبيذ وهل يجري عليه ما يجري على الخمر من حيث التحريم باعتبار أن كل مسكر حرام، قليله وكثيره.

49) الكَبَر : هو الراوند الجبلي، ويعرف بالكرمة السوداء، من فصيلة الكبريات، وحَبه من التوابل، واسمه اللاتيني : Caparis spinosa.

50) الصناب : طعام يتخذ من الخردل والزبيب يؤتدم به.

الحَمّام :

«الحَمَّام من أحسن ما انتهت إليه الحِيَل الإنسانية في حفظ الصحة وانتهاء[51] الزينة ملاءمةً للطباع ومحاكاةً للفصول وجمعاً بين الأضداد. وأفضله ما قَدُم منه البناء وطاب الهواء واتّسعت الأرجاء وعَذُب الماء، ولكل بيت من بيوته طبيعة تناسب بعضَ طبائع الإنسان».

«الماء العذب البارد يشدُّ البَدن ويقوّيه، والاغتسال بالماء البارد لا يصلح إلا بمن كان تدبيره من كلّ الوجوه موافقاً، وسنّه وقُوّته وسحنته مناسباً، فإنه يهْزم الحار الغريزي أولاً ثم يُقوّيه بالانجماع على البروز، ولا يصلح الاغتسال بالمياه الباردة بالشيخ ولا الصبي ولا بصاحب التّخمة ولا القيء والإسهال والسهر، ويختار له وقت النّشاط والاستنشاق إلى البارد، وأفضله في الصيف عند الظهيرة لمن لا يحتمله في سائر الفصول».

«ولسائر المياه فيه أحكام، فالمياه النطْرونية والحجَرية والكِبريتية والرَّمادية والمالِحة، طبعاً أو علاجاً، تحلّل وتلطف وتزيل الرَّهَل[52] وتنفع انصباب المواد إلى القروح، [والنحاسية][53] والحديدية تنفع من أمراض البرد والرطُوبة والاسترخاء والرَّبو ووجع المفاصل، والبَوْرَقية تجلو وتنفع الرؤوس القابلة للمواد والاستسقاء، والشّبِّية والزّاجية تنفع من نزف الدم من المَقْعَدة وأمثال ذلك، والكبريتية كماء الحَمّات[54] تُنَقّي الأعصاب وتحلّل الزّمانات وتُذهب الفضول، والمياه الحَمِّية تملأ الرؤوس فيجب على المستحمّ بها أن لا يغمس رأسه... وحقُّ المستحمّ بها أن يتدرّج ويترفّق».

51) في ب، ج : وابتغاء الزينة.

52) في ب : الرمد، والرَّهل اضطراب اللحم واسترخاؤه.

53) ساقطة في ج.

54) في ب : الحامات، وفي ج الحمامات.

«ومما يتعلّق بذكر الحمّام في هذا المكان التضحّي[55] بالشمس والاندفانُ في الرَّمل، والتضحّي ممّا يحلّل الفضول لا سيما مع حركة شديدة، وينفع أمراضاً صَعْبة غليظة، والسكون في التضحّي أشدّ بكيفية الحرّ الحادث بسَطْح البدن من التحرّك والاندفان في الرمل، وبخصوص رملُ البحر يحلّل كذلك الأوجاع والاستسقاء والرَّبو».

«قالوا : مِن منافع الحمام أن يُطَرِّيَ البدن ويُفَتِّح المسامّ ويحلّل الأوساخ التي ترتبك فيه ويخفّف الامتلاء ويَفُشّ الرياح ويَجلب النوم ويرقّق الأخلاط ويسكّن الأوجاع ويمنع الخِلْفة[56] ويذهبَ بالإعياء ويُهَيّئ البدن للاغتذاء».

«قال بَعْضهم : إن الحمَّام يفعل في النفوس ما يفعله الخمر من السرور والإطناب، ولذلك نجد أكثر الناس يُغَنّون في الحمّام. ومن مضارّه أنه يسخّن القلب ويُسقط القوة ويُهيج الغَثى ويَجْلب الغَشْي ويجعل للموادّ السببَ إلى الانصباب، ولذلك ينبغي أن يَحذره من به حمّى أو سَحْج[57] أو قرحة أو فسخ أو وَرَم، ويُحذر دخوله على الشّبَع إلا من يريد السمن، ومن اضْطُرّ إلى دخوله بعده، فليشرب بعده السكَنْجبين ويلطف التدبير ما أمكن».

أحوال النّوم واليقَظة :

«ونحن نجتزئ عن بيان حالِ النوم واليقظة بجلب ما قيد عنّا في هذه الأيام، فعسى أن يكون أبينَ وأبسط مما تضمَّنته كتبُ من سبقنا من الأطباء[58]، وهو أنَّ السلطان

55) التضحّي بالشمس : الانتصاب والقعود لها.
56) الخِلْفَة : (بكسر الخاء) : فساد المَعدة من الطعام يسبّب إسْهَالاً.
57) السَّحج : تقشر الجلد.
58) خص ابن الخطيب أحوال النوم واليقظة بكلام طويل، وقد رأيت أن أقتصر منه على هذه الرسالة برمّتها، وهي مستقلة بذاتها، وقد أحسن المؤلف صنعاً بتضمينها في كتاب الوصول، الأمر الذي حفظها من الضياع، وهى في غاية الطرافة رغم التواء أسلوبها.

ـألني عن حقيقة السهر لما مرضت وأصابنى السهر، (الأرَق) وتردَّدت زيارة السلطان ـ أعزه الله ـ إيَّاي، وكان يَعرض لي كلّما رمت الغَمض أو قاربته ضَرَبانٌ في قلبي يُسرع له نبضي ويتْبعه القلق الذي تسوء معه حالي. فقلت ـ على عادتي في بيان الأمور الغامضة له بالمُثُل بما اقتضاه حسن استماعه وصحَّةُ تمييزه وفضلُ حرصه على كماله» :

«اعْلم أن جملةَ الإنسان ـ حسبما تقرر في محلّه ـ مملكةٌ مستقلة بذاتها، ملكُها القلب ونائبُه القوة المدبّرة في معْقله ومحلٌ خزائنه ـ وهو الدماغ ـ والقوةُ الحافظة خازنُه، وقوة الخيال مُنهي الأخبار إليه ورافعُها إلى دَسْته، والحواسّ الخمس جُنده الذين اقتسموا حِراسة جهات المملكة ونواحي أقطار العمالة وقعدوا لما يَطرق العمالة ـ وهي الجسد ـ من كلّ جهة يمكن أن يطرق منها، والقوى الطبيعية التي في الكبد خَدَمة المطبخ وَوُلاة الأرزاق ومُقدّروا النفقات».

«فمتى ورد على طرفٍ من أطراف العمالة المذكورة واردٌ مؤلمٌ كان أو مُلذٌّ تَلَقّاه الحارس الذي يلي طريقه من أصناف جُندِ الحواس الخمس، بصراً أو سمعاً أو شماً أو ذوقاً أو لمساً، وصاح به وأنذر بوروده ووجّه بريدَ الحسّ يُعرّف به فصار على مسلك التعريف ـ وهو العصَب طريق الكلّ إلى قلعة السلطان ـ فعرّف بالوارد صاحب الأخبار ومتوليها ـ وهو الحِسُّ المشترك ـ فقرّر الأمر بعد أن يَفْصِله الكاتب ـ وهو الخيال ـ ويُهيئه إلى قبول الوزير ـ وهي القوة المفكرة ـ بعد أن يُنهيَ ذلك إلى الملك ـ وهو الروح الذي في القلب ـ فإن كان ذلك الأمر الوارد الذي يُعَرَّف به مما يقتضي التراخي والإرجاء والاستخزان دُفِعَ إلى خازن الحفظ [فيُودِعُه خزانةَ القوة الحافظة، فإذا احتيج إليه يوماً مّا طُلِبَ خديمُ خزانة الحِفظ][59] ـ وهي قوة الذكر ـ

59) عبارات ساقطة في ب.

بإحضاره، فاستحضرته القوة الذاكرة، وإن كان موجباً لتعجيل الحركة وإمضاء الحكم وكان مما يُعمل فيه النظر ويُلتمس الرأي شاور الملكُ القوةَ المفكرة إن كان الأمر رويةً أو عَجلة أو كان بدهيةً، وحرّك بَعدُ خدامَ النّفرة عنه أو النزوع بواسطة الإرادة، وحرّكت الإرادةُ الأعضاءَ الآلية بواسطة العَضَل الذي هو واسطة الحركات الجِرْمية فكان الإقدام على الشيءِ والمدافعةُ له أو الفرارُ عنه وطلبُ النجاة من شَرّه، وربما أعجل الأمر عن الشورى إذا[60] أُحضر جليسُ القوة المتوهِّمة وأنفذ الحكم بديهة، وإن فَتَر الخبرُ ولاَن التعريف أو تَوانى[61] بانفصال الوارد الخبر أو صحّ بكذب المُعَرّف الأول به التعريفُ استصحبت حالُه السكون، مثالُ ذلك : أن يَطرق من جهة حُرَّاس السمع صوتٌ وألفاظ تدلّ على معاني كلامٍ من شِعْر أو حكمة أو قانونٍ عِلْميّ فُيؤدّيه السمع من باب الصّماخ إلى عصب الحسّ المشترك وينظر فيه الخيالُ ويؤديه إلى قوة الفِكر فيتحدّث فيه مع القلب ثم يستحفظه في مخزن القوة الحافظة، فإن كان المخزن سليماً والخازن أميناً ـ وهو المتَّصِف بالحال الطبيعية ـ أدَّاه متى طَلب إلى الخديم ـ وهي قوة الذكر ـ بحاله لم تختلط بسواه ولا نقص شيء من كَمّيته، أو كان مما يتّصف بالإخلال جرى الأمر فيه بغير ذلك، وربما بَحث خديمُ خزانة الحفظ ـ وهو الذكر ـ عن المقدار الذي ضاع فَجَبره أو ربما عجز عن جَبْره، أو يَطرق من جهة حارس البَصر صورةُ شيءٍ مقبلٍ يدنو إلى المدينة فيُسرع الإخبارَ به إلى الخيال على طريق العصب الأجوف فيفصِلُه بأن رأى فيه آلاتِ السباع أو ذواتِ النهوش والسموم أدّى خَبَره إلى الملك، وقد حكم بأنه عدوٌّ فَحَذَّر محرك[62] الملك قوة النفْرة عنه والحذر، إما مستعجلا بالحكم قبل استشارة الوزير بإغراء خديم القوة الوهمية، أو بعد الاستشارة، وبحسب قوة العدوّ أو ضعفه يكون الاهتمام بأمره أو الإلغاء وعدم

60) في ب : إذ.

61) في ب، ج : أو توالى.

62) في أ : بأنه عدو يحذر، حرك.

المبالاة، وإن حَكَم الخيال على الصورة بالملاءمة كالأشكال التي تصلح للشهوة من مطعوم أو محل نكاح حَرك الملك ـ وهو القلب ـ خدّام النزوع إلى الشيء والحبّ له على قبوله والحرصِ على تناوله، وسَخَّرت الإرادةُ آلات الحركة».

«وعلى هذا السبيل في سائر رُتَبِ الحواس مدَّةَ اشتغال النفس بتدبير البدن وعلاقتها به».

«ولمّا كان شغل هذه القوى بهذه الوظائف وحُكْمُ القلب فيها كَدّاً ونصباً لا تحمله صورة الحيوان احتاج إلى ما يَحتاج إليه كل متحرك ذي آلةٍ يطرقها الكلال والتحليل ما لم توفر ويخلف ما تَحلّل منها، وهو زمان سكون ودَعَة وهدوء وفراغ، فجعل الله ـ سبحانه ـ الليلَ لباساً [والنوم سُباتاً][63] والنَّهار معاشاً، وقَدَّر[64] زمان ذلك السكون الذي تقع فيه راحةُ القوة النفسية بالليل، وكأنَّ[65] الليل ظِلّ الأرض عندما يحول جرمها بين أهلها وبين نور الشمس فيفقدون النور الذي تُدرَك به المبصرات المرئية، وجعل ذلك السبات والسكون المسمّى بالنوم مسبباً عن الليل لانقباض الأرواح منه واستيحاشها ونفرتها من برده المضاد لطبع الروح، ومن ظُلمته المضادة لطبع النور، ولخلوه عن المآرب المعاشية لعائق[66] الظلام، فكانت الأرواح النفسانية وأكثر الحيوانية ترتدي[67] به كلّ ليلة عند الإحساس به أمام البرد التابع لغروب الشمس المضادّ لطبع الروح [والظلمةِ المضادّة لطبع نور الروح][68] راجعة كلها

63) عبارة ساقطة في ج.
64) في ج : وقرن.
65) في ج : وكان.
66) في ج : لعلائق.
67) في ب : ترتد، وفي ج : تزيد.
68) عبارات ساقطة في ج.

إلى المركز والملجأ معدنِ الحَرّ الغريزي وينبوع الروح ما لم تَعُقها عن ذلك عوائقُ قَسْرية وموانعُ غير طبيعية لتستمدّ منه عوضاً مما حلّلته الوظائف الحَركية في حال اليقظة، ويَفرغ القلب أيضاً من شغب الحكم والمطالبة وإلحاح الفكرة التي تحجب عنه، ويشتغل بصلاح نفسه وتناوُل غذائه وتُخلى عند ذلك من الحرسة الأطراف وتسكن الحركات وتتعطّل مجالس القوى وطلائع الحواسّ من تعب التلقّي والتبليغ فتكون الحالةُ الشبيهة بالسّكت والسّبات، وهي حالة النوم، وعند هذه الحال الطبيعية ترتاح القوى من الكدّ ويستريح القلب من شغب الفِكر، وبرجوع الروح إلى الباطن يرجع الحَرّ التابع لطبيعته إلى الباطن ويتّصف بالغؤور فيجود الطبخ في المطبخ وتحسن الهضوم ويرتفع من المعدة البخار الرطب الذي يُبَلّدُ الحواسّ ويكدّرها عند النوم».

«وبالجملة فلهذه البُخارات وللمعدة في النوم علّةٌ تمامية، وبقرب[69] الأرواح من منبعها وتراجعها إليه يخلُف ما تحلّل منها وينمّي ما نقص، فإذا أخذت حظوظَها من النوم إما مطفّفة أو مبخوسة أو قصداً بحسب الأمزجة الشخصية والعوارض وطبائع الفصول تراجعت إلى رُتَبها ومقاعدها وعَمرت دواوينها وأخذت في أفعالها، وهذه الحالة الثانية تسمّى يقظَةً تتعاقب مع حالة النوم دائماً إلى أن تنقطع علاقةُ النفس بالجسد، وما دام القلب وادعاً ومزاجه سليماً لم يَعُق تراجع الأرواح إلى القلب واستمدادها منه وقَبوله عليها عائق، وهي الحالة الطبيعية الصحية، فإذا أزعج الروح مزعج[70] الطبيعة إلى النوم وأوحشته ظلمة الليل وبَرْده وتراجع إلى مركزه ـ وهو القلب ـ ووجد منه القابلية ببقاء مزاجه الشخصي الجامع بينهما على أصله أنِس به وخلطه ووصله وأمَدّ ذُباله من مشكاته، وخلف ما تحلل منه وصرفه عند اليقظة

69) في ج : ويقرب.

70) في ج : تزعج، ولعل الصواب أن يكون : مزعج، والجملة على كل حال غامضة.

راضياً، وهي الحالة الصحية الطبيعية، وارتفعت لذلك أبخرةٌ إلى أعالي البـدن وسَقْفـه ـ وهو الرأس ـ رطبة طبيعية من طبخ المهضوم تتمّ بها الحالة النومية الشبيهة بالحـالـة السكرية».

«وإن ألْفاه قد تغيَّر مزاجه تغيّراً حصلت بـه المضـادّة ـ إذ لا ينكر وقوع التضـادّ في الجنس الواحد ـ أنكره وجفاه وشُغِل عنه بنفسه ووقع التّمانع والمنازعـة وعـدمُ القَبول كمَن يَرِدُ على صديقه الذي يَسكُن إليه ويستريح لقُربه فيجده قـد غَضِب أو تهوّر أو جُنَّ. فكلما قرب منه فرّ أمامه وجفاه ورماه بالحجارة وطرده فانصرف عنه رغماً وقد قَويَ انزعاجه وقلقُـه واستصحب هـذه الحـال، إن كان السبب شـديـداً، من الضَّربـان والضَّجر والقلق وأعْراض سوء المزاج اليابس ما لا يُنْكَر، فإذا بحث عن الموجب الذي أساء خُلُق الروح القلبي وحرص على تعرّفه فكثيراً مـا يلفى لآلام[71] موقظـة مقلقـة وحوادث يُنهيها إلى الملك صاحبُ الرّقاع مما يُضجره ويشغلـه الاهتمام بهـا عن عـادة قَبوله على ذوي وُدّه، ويقابل الطبيب متولّي سياسةِ البـدن، ذلـك إمـا بسـدّ طريق الحـاسّـة إلى الخيـال حتى لا يـأتي الخبر بـالمـؤلم، أو تسكينُ مـا استقرَّ في عُضْوٍ أو بعضه[72]، أو إحدارُ حِسِّه أو تكـديرُ حسّ الخيـال حتى لا يُؤدّي صورة الألم بحـالهـا، وربمـا يُلْفَى ذلـك لكثرة إلحـاح المفكّرة بطلب الحكم من الملـك ـ وهـو القلب ـ في قضايا يُنْفذها بعد تفصيل الخيال وتَلخيص الفكر ـ وذلك من مضجرات الحكّـام على ما هو معروف ـ فيقابل أيضاً ذلك بـالتشـاغل والإغفـاء[73] وعلاج الوسواس وأمثـال هذا مما ترتفع به عن القلب الوحشة ويفرغ عن الشغل بمحاربـة من يؤذيـه ويشغبـه إلى ملاقاة من كان يـأنس بـه ويستريح إليـه، ويستعمل ضروبَ العلاج الجسماني من نَطوُلٍ ومشموم ومشروب ومأكول أو بالعلاج الروحاني من استدعاء فَرحٍ وانبسـاط».

---

71) في أ : للآلام.

72) في أ : نقضه، وفي ج : نفضه.

73) في ب، ج : والإعفاء.

«وقد ذَكرْنَا أن لصعود الأبخرة من المعدة إلى الدماغ علّةً تمامية، فربما عرض ما يمانعها من فسادِ قوامِ البخار لفساد مادّته أو فساد مزاجِ المحل المتأدّي إليه البخار فيختل فيهما القوام الذي يَحصل به تمامُ تلك العلّة التّمامية لاستيلاء سلطان اليُبس كالذي يَعرض للناقهين والمسنّين، ومن جَفّت رطوبته جفافاً فسد له مزاج الروح أو البُخار أو الدماغ، فقابل ذلك من الترطيب والتّعديل بما فيه وسعه، فتبين من هذا بعضُ أحوال النوم والسّهر، وأن حقيقة النوم غؤورُ الأرْواح النفسانية والحيوانية ورجوعها إلى القلب وحَركتُها إلى داخل لِمزعج طبيعي ومنافع [غير يسيرة][74] وأنّ السهر اتصالُ اليقظة، وهو حركة الروح إلى خارج، وأن المجرى الطبيعي تعاقبُ هاتين الحالتين بمناسبةٍ تقتضيها طبائع الفصُول، حكمةً مِمَّن قَدَّر الأُمور وأحسن ترتيبها، لا إله إلاّ هو».

«وسألني عن سبب سهري الخاصّ فأخبرتُه أنّه لبخارِ رَديء من قِبل الأخلاط المحترقة يتأدّى إلى القلب من فم المعدة لما بينهما من المشاركة، وأنّ القصد مصروفٌ إلى علاجه، والتسديدُ والإصابةُ مستمنَحان ممّن أنزل الداءَ وأنزل الدواء سبحانه. فقابَل ذلك بعادته من حسن الإصغاء وصحّة التصوّر وإفاضة الشكر، وأشار بتقييد هذا القول لمن ينتفع به فَعَمِلَ بحسب ذلك، وحسبُنَا الله. وكان إملاؤه عَشي يوم الخميس الخامس والعشرين لذي حِجّة عام تسعة وستين وسبعمائة».

الحركة والسكون :

«إنّ أنواع الحركات في بدن الإنسان تثير الحرارة فإن أفرطت بَرَّدت آخراً بتحليل الحرّ الغريزي».

---

74) عبارة ساقطة في ب.

«وأما السكون فهو مُبردٌ مطفئٌ للحرارة الغريزية لفقدان انتعاش الحرارة وللاحتقان الخانق، وهو مُرطِّب لفقد التحلّل من الفضول».

«يسّر الله حِيَل الرياضة سياسةً للانسان وطبيعةً لغيره[75]، ولم يكن شيء أنفع لاجتماع موادِّ الامتلاء وتجفيفها وتحليلها والاستيثار فيها من الرياضة، إذ كانت تثير حرارةً لطيفة تُحلّل بها ما اجتمع من فضل كلِّ يوم، وتُعين بالحركة على إخراجه من المجاري المعتادة، فلا يجتمع على مرور الأيام مع تلك الحركة ما يُعتَدُّ به، وهي مع ذلك تُنَمّي الحرَّ الغريزي وتصلب المفاصل على المماسّة والاصطكاك، والأوتار على التمدّد، والعضلات على الحركات، وتُعِدُّ الأعضاء بالإنقاء والإخلاء لقَبول الغذاء، وتحرّك الجواذب، وتحلّ التعقّدات وترق الرطوبات وتفتح المنافس».

«إن الرياضة تختلف بحسب المقدار والكيفية والكمية، إذ منها القليل والكثير والقويّ واللّيِّن والبطيء والسريع... وتختلف أنواعها بحسب الكيف إلى مشْيٍ وجرْيٍ ورمْيٍ وصراعٍ ومنازعة ومثاقفة وركوب آلة برٍّ أو بحر، وما إلى ذلك، وهو أيضاً أنواع ملائمة... وأفضل الرياضة المشيُ المعتدل والركوب».

«قالوا : وقت الشروع في الرياضة أن يكون البدن نقياً بحيث لا يُظَنُّ ببعض نواحي الأحشاء والعروق كيمُوسَات حامية رديئة تنشرها الرياضة، وبعد أن ينهضم طعام الأمس، ودليله نضج البول قَواماً ولوناً، وقرب حضورِ معتادِ غذاء اليوم. وإن وجبت رياضةٌ شديدة فالأفضل لها أن لا تكون المعدة خاليةً من الطعام جداً، وأن يكون فيها قليلُ غذاء... ولينفض قبل الرياضة فضل الأمعاء والمثانة. وأفضل الأوقات منتصف النّهار في الربيع أو ما قَبْله وأوائله في الصيف وأواخره في الشتاء،

75) يقصد أن الرياضة والحركة طبيعة في سائر ما خلق الله من حيوان، وأنها في الإنسان سياسةٌ وتدبير.

وأما المقدار فيراعى فيه جودةُ اللون من حمرةٍ وبَراقة وخفّةِ الحركات وانتفَاخ الأعضاء ورُبُوِّها، فإذا تَغَيَّر اللون وثقلت الحركة وانبهر النَّفَس وتصبّب العرق فقد خرجت الرياضة إلى حدّ التعب وانتقل الانتفاع إلى التضرر، وتجتنب الحركة العنيفة وتطويلها بعد النوم الطويل إذ الحركة قبله حافِظة للصحة وبعده جالبة للمرض».

الحركة النفسانية :

«اعْلم أن الروحَ ينفعل في بدن الإنسان لتصوراتٍ نفسانية وهيآت نفسانية تَؤثّر فيه تأثيرَ التصوّرات النفسانية بالعَرض، فالعوارض النفسانية تصاحبها أو تتبعها حركاتُ الروح إما إلى داخل - وهي دفعة كما عند الفَرح - أو بتدريج - كما عند الحزن - ويتبع الحركةَ إلى داخل برودةُ الظاهر وحرارةُ الباطن، وربما اختنقت من شدَّة الانحصار فَيَبْرُد الظاهر والباطن، ويتبع ذلك الغَشْي، فإن أفرط فالموت، وإما إلى الخارج - وهي دفعة كالغضب - أو بتدريج كما عند اللذة وعند الفرح المعتدل، ويتبع الحركة إلى خارج بَرْد الباطن وحرُّ الخارج، وربما أفرط بتحلّل الحرّ دفعة فَبرد الباطن والظاهر وتَبِعه غَشْيٌ أو موت»».

«والاحتقان والتحلّل يلازم ما كان من ذلك دفعة، والنقصان وذبول الحرّ الغريزي يلازم اتّباع ما كان منه متتالياً، وربما كانت حركةُ الروح إلى جهتين في وقتٍ واحد إذا كان العارض النفساني يَلْزمه غرضان اثنان من جهتين مختلفتين كما يعرض في الغَضَب مع الحزن وكما يَعْرض في الخجل إذ ينقبض الباطن ثم يعود التماسك والعقل وينبسط ما انقبض فتثور بعده الحركةُ إلى خارج فيحمرُّ اللّون».

«وأما ما يؤثر في الطبيعة من تصوّرات نفسانية من غير هذه - ينكرها من لم يتعاهد الحكمة - فكثيرٌ كتضرُّر العضو عند النظر إلى آفةٍ حلّت بنظيره في الغَيْرِ وإعداء التمطّي والتشاؤب وَسَيَلان اللُّعاب عند النظر إلى أكل الحوامض، وثوران الدّم عند النظر إلى الحُمرة، وإعداء الرَّمَد واشمئزاز البَشرة من حكِّ الخَزف الأحرش وأمثال ذلك».

نبذة من شِعْر إبراهيم بن سَهْل*
ليست في نسخ ديوانه المطبوعة

عبد الله كَنّون

يظهر أن شِعْر إبراهيم بن سَهْل لم يجمع كلّه، وأن نسخ ديوانه المطبوعة ينقصها غير قليل من شعره الذي يوجد متفرقاً في أكثر من كتاب من كتب الأدب، أو بعض مخطوطات ديوانه التي لم تطبع بعد، ومنه نبذة لا بأس بها، فاتت جميع نسخ الديوان حتى المطبوعة الأخيرة التي استدركت جملة صالحة من متفرّق شعْره.

وهذه النبذة الشعرية من فائت دواوين ابن سَهْل تقع ضِمن أوراق من مجموع مخطوط بمكتبتنا الخاصة، يشتمل على عدّة مؤلفات، منها شرح الافْراني لموشّح ابن سهل، ويبلغ عددها إحدى عشرة صفحة، وكلها من شعر صاحبنا، بحيث تكوّن ديواناً صغيرا أو منتخباً من ديوان له. ولأول مرّة قرأتُها، لاحظت أن بعض شعرها غير معروف، وقابلتُها بالديوان المطبوع بمصر في مطبعة التقدم، بمعرفة الشيخ حسَن العَطار، وعناية الكتُبي المغربي المعروف مولاي أحمد القادري، فتأكد لي ذلك.

ولّما لم أكن أملك غير هذه الطبعة من ديوان ابن سهل، فإني لم أهتم بالأمر، وبقيت كذلك إلى أن وقفتُ على الطبعة الجديدة التي أصدرتها دار صَادِر ببيْروت بمقدّمة

* إبراهيم بن سهل الإشبيلي شاعر أندلسي كان يهودياً وأسلم، وكان كاتباً لابن خلاص والي سبتة وبها توفي عام 649 هـ.

للدكتور إحسان عباس بتاريخ 1387 هـ الموافق 1967م، وفي التصدير الذي كتبه المشرفون على الدار لهذه الطبعة، ذكروا أن الديوان طُبع طبعة حجَرية بإشراف الشيخ حسَن العطار سنة 1302 هـ، وطُبع بمطبعة الترقِّي بمصر بإشراف الشيخ أحمد حسين القرني سنة 1324 هـ 1906م، وطبع بدار صادر أولاً سنة 1951م قبل هذه الطبعة الجديدة، ولم يشيروا إلى طبعة القادري التي بأيدينا، وقالوا إن الدكتور إحسان أطلعهم على صورة مخطوطة من الديوان أحضرها من المغرب، ولكنها غير تامة، بل بها بتْر ضاعت بسببه بقية حرف الرّاء والكاف واللاّم وبعض الميم، فأكملوا هذا النقص في الطبعة الجديدة من نسخ الديوان المطبوعة فيما قبل، وأضافوا إلى ذلك ما وجدوه من شعر ابن سَهْل في مصادر أخرى، بلغت في تَعدادهم أحد عشر كتاباً من المظانّ ما بين مغربي ومشرقي.

وإذ ذاك وجدتَ نفسي أمام عمل متكامل يمكن بغاية السهولة مقابلة الأوراق المذكورة به، لمعرفة ما إذا كانت تلك الأشعار غير المعروفة مما تنفرد به عن جميع نسخ الديوان المطبوعة، وما أضيف إليها من الكتب المظانّ.

وقد وجدت الأمر كذلك بالفعل، وتبيّن لي أن شعر ابن سَهْل لم يُدوّن كلّه، وأن جمعه كان على فترات، فلذلك تعدّدت دواوينه، واشتمل بعضها على زيادات من قبيل ما في هذه الأوراق التي ربما كانت مشروعاً لديوان أو منتخباً منه، ومع ذلك فقد بقي منه ما تفرق في مصادر أخرى مما جمعته طبعة دار صادرِ الجديدة.

وقد كان عملي أولاً استخراج هذه الزيادات من فائت دواوين شعر ابن سَهْل الذي انفردت به الأوراق المُومى إليها، وهي ما بين قصيدة وأبيات ومخمس، ستّ قطع تجيء في أزيد من ستّين بيتاً بحسب أشطار المخمس، وقد جرّدتُها وضبطتها وعلّقت عليها بما يلزم، وأثبت ما كتب على بعضها في طرّة الأصل، ولم أراع في ترتيبها إلاّ ترتيبها في الأوراق، وهو على ما يظهر كان كما اتفق، لا على الحروف ولا غيرها.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن كاتب هذه الأوراق هو كاتب التآليف التي يتكوّن منها المجموع، واسمه محمّد بن محمّد بن إسماعيل بن عمر بن صالح الحسَني التِّلمْساني، يُدعى

ابن مخلوف نـزيـل طنجـة، وانتســاخ بعض هـذه المؤلفـات مـؤرخ بعـام 1292 هـ، فمرجعها إذن إلى أواخر القرن الثالث عشر. والخطّ عادي إلى رديء. ومِداده فـاتح إلى ناصل. وكذلـك الألوان التي تتخلّلـه، وهي مـا بين أحمرَ فـاقع وأزرق ومركّب منهما، أي بنفْسجي. والكاتب يعنى بـاختلاف النسخ وتفسير معنى بعض الأبيات في الطرة، وهو مع ذلك نفع في كثير من الخطإ.

وتبتدىء أشعـار الأوراق بلفـظ الحمـد لله، وهـذه العبـارة : « ولابن سَهْل عفـا الله عنه ». وتسترسل هكذا : « وله أيضا ».

ثم إني رقّمت أشعار هذه الأوراق. فكان عـددهـا ثلاثـة وثلاثين، بـإدخـال الزيـادات المقصودة بالـذات، وفـائـدة ذلـك أن أعطي لكل رقم منهـا رقـمَـه في الـديوان إذ أن أشعار الديوان في طبعته الجديدة كلها مرقّمة، فتعرف بذلك أشعـار الأوراق مـا عـدا الزيادات الستّ التي ستذكر بنصّها، فأرقامها هي التي ستسقط من هذا الجرد.

وعمل آخر كان لا بدّ من القيام به، وهو مقابلة هذه الأشعار بنظائرهـا في الـديوان، لتصحيحهـا أو معرفـة اختلاف النسَخ أو وجود بعض الأبيـات الزائـدة أو غير ذلـك، وقد تمّ هذا العمل بغاية الدقّة كما سيُرى ذلك في محلّه.

والنظرة الأولى إلى هذه الأشعار تقضي بأنها لابن سَهل، فهي في موضوع الغزل الـذي يغلب على شعره وكاد يختصّ بـه، وهي كثيرا مـا تحـوم على المعـاني المستقـاة من النصوص الدينية وأخبار الأنبياء، وخاصة سيدنا موسى عليه السّلام. وإلى ذلـك فهي تتراوح بين الإجادة والضعْف واقتباس معـاني الشعراء السـابقين. فقلّما يـأتي بشيء من عنده. وإجادتـه إنمـا تكون في صوغ مـا اقتبسـه صيـاغـة محكمـة. وكـذلـك شعره في الـديوان، وأجْـوَد شعره مـوشّحــه « هــل درى ظبي الحمى »، و« قصيــدة ســل في

الدياجي »، و« تنازعني الآمال »، وبعض الموشحات والقصائد الأخرى والمقطعات التي تميزت فيها شخصيته وظهرت عبقريته.

وقد يحول بعض التصحيف الذي دخل شعره عن استجلاء المعنى الذي يقصده، فيضعف كما وقعت الإشارة لذلك في موضع أو موضعين من هذه الأشعار.

الزيادات

3

حبيبي على الدنيا إذا غبت وحشة ... فيا قمري قُلْ لي متى أنت طالع
لقد فنيت روحي عليك صبابة ... فما أنت ياروحي العزيزة صانع
سروري بأن تبقى بخير ونعمة ... وإني من الدنيا بذلك قانع
فما الحبّ إن طاعنته لك باطل ... وما الدمع ان أفنيته لك ضائع
وغيرك إن أوفى فما أنا ناظر ... اليه وإن نادى فما أنا سامع
كأنّي موسى حين ألقته أمّه ... وقد حرمت يوماً عليه المراضع
أظن حبيبي حال عما عهدته ... وإلاّ فما عذر عن الوصل مانع
فقد راح غضبانا ولى ما رأيته ... ثلاثة أيام وذا اليوم رابع
أرى قصده أن يقطع الوصْل بيننا ... وقد سلّ سيف اللّحظ والسيف قاطع
واني على هذا الجفاء لصابر ... لعلّ حبيبي بالرضا لي راجع
وإن تتفضل يا حولي فقُل له ... حبيبك في ضيق وحلمك واسع
فوالله ما ابتلّت لقلبي علّة ... ولا نشفت مني عليه المدامع
تذلّلتُ حتى رقّ لي قلب حاسدي ... وصار عدوّي في الهوى لي شافع[1]
فلا تنكروا مني خضوعا رأيتم ... فما أنا في شيء سوى الحبّ خاضع

(1) لا يخفى أن المقام هنا للنصب لا للرفع.

11

مـــــوسى ترفــــــق ولا تضعني عبـــدك لا شـــكّ بعض مـــالـــك[2]
إذا مـــزايـــــا الجمـــال عـــــدت لم يحـب البـــدر من رجـــالـــك
لا نـــال منـــك الـــزمـــان حظّـــاً ولا الـــذي نلت من وصـــالـــك[3]

15

مقلـــــــة عَيْنِي نظرت حتى لقلبي أسرت
وذو دلال أهيف نكهتـــه[4] قـــد عطرت
في وجـــه من أحبـــه (إذا السماء انفطرت)
وأدمعي من أجلـــــه (إذا البحـــــار فُجِّرت)
ومهجتي من هجره (إذا الجحيم سُعرت)
وخـــاطري في حبّـــه (إذا النجـوم انكـــدَرت)
بـــدر كأن عقلـــه (إذا الجبـــــال سُيِّرت)
قـــد علمت نفسي بـــه (مـــا قـــدَّمت وأخَّرت)
قلت لـــه متى اللّقـــا وادمُعي تحـــــدَّرت
فقـــال لي مجـــاوبـــاً (إذا القبـــــور بُعْثِرت)
أراد قتلي عـــامـــدا[5] (بـــــأيِّ ذنب قُتِلت)

19

أمـــا آن للبـــدر المنير طلـــوع فتشرق أوطـــان لـــه ربـــوع
فيـــا غـــائبـــا مـــا غـــاب إلا بـــوجهـــه ولي أبـــدا شـــوق لـــه ولـــوع

---

2) كتب على هذا الشطر بطرة الأصل : أي لا تشك أن عبدك هو من جملة مالك لكونه مشترى من المال الذي لك بلاشك ولا ريب.

3) بمجلة الحوليات : إلا الذي نلت.

4) بالأصل : نهكته.

5) بالأصل : عمدا.

سأشكر حمّا زاد فيه عبادتي[6] وإن كان فيه ذلة وخضوع

أصلي وعندي للصبابة رقة فكل صلاتي في هواك خشوع

أأحبابنا هل ذلك العيش عائد كما كان إذ أنتم ونحن جميع

وقلتم ربيع موعد الوصل بيننا وهذا ربيع قد مضى وربيع

فقد فنيت ياهاجري رسائلي وملّ رسول بيننا وشفيع

فلا تقرعوا بالعتب قلبي فإنه وحقّكم مثل الزجاج صديع

وما ضاع شعري فيكم حين قلته[7] بلى وأبيكم ضاع فهو يضوع

أحب البديع الحسن معنى وصورة وشعريَ في ذلك البديع بديع

20

وله، وقد مرّ بحانوت حجّام فأبصر مليحاً يفصد، فأنشأ :

انظرْ إلى دمه في الطّاس حين جرى[☆] نوعاً من الراح في كأْس من الذهب

حتى إذا غُيبت في كمه يده[8] كالشمس غابت عن الأبصار في الحجب

تبّت يدٌ كتبت من فوق وجنته حمّالة الورد لا حمّالة الحطَب

انظُر كما قال في التنزيل خالقُنا اخفِض جناحك ياموسى من الرهب

33

ألحظ ظبي فوق ثغر لآل أهلال ثمّ فوق جيد غزال

أقضيب بان في كثيب رمال هبّ النسيم بغصنه الميال

فاختال بين ترنّح ودلال

---

6) كذا. وقد تكون «عبادتي»، وزاد : زار، ومع ذلك يبقى المعنى غامضا.

7) فيكم ليست في الأصل، ولابد منها. و«حين قلته» تصحّفت في الأُصل بـ«حين نلته».

☆) بمجلة الحوليات : أما ترى دمه في الطشت... سلافة الراح.

وتزيد بيتا هو :

لو لم تكن من دم العنقود ريقتُه لما اشتكى خده القاني من اللُّهب

8) في الأصل : يداه في كه. ونظن أن صوابه ما أثبتناه.

رشـــأ يهيم بحـن منظره الرّشـــا يروى ويرعى في المـدامـع والحشـــا
قلم الجمـــال بصحن خـــدّيْـــه وشى احكُم على أهـل الغرام بمـــا تشـــأ
وقُـــد المـلاحَ فـــأنت فيهم وال

كلف الفـــؤاد بحب أحـــوى أحـــور يفتر مـسكا عن ختـــــــام السّكر
في فيـــه يجرى كـــوْثر من جـــوْهر جمـدت لـه في الخـــال نقطـــة عنْبر
فـأذاب مـاء الخـدّ خـاء الخـال[9]

مَن لي بـه لبس المـلاحـة وارتـدى وحكى الغـزالـــة مقلـــة ومقلّـــدا
والـوُرْقُ تعشـق منـه غصنـا أمْلَـدا وتمنت الأكـــــــــواسُ أن تتزردا
برضـا بـه بـدلا من الجريـال[10]

ظبي مهـاب بين مشتبـك القنـا[11] ألْحـــاظُـه فيهـا المنـايـا والمُنى
ستروه خـــوفــا منهم أن يفتنـــا والله مـــا حـطّ النقـاب ولا رنـا
ألاّ وتيّم كل قلب ســــــــال

لمـــا تطلـع في سنـــا اشراقـــه والسّحْر معقـود بعقـد نطـاقـــه
والجـور في الأحكام من أخـلاقـــه استـل سيف اللحـظ من احـداقـه
فعلمت أن اليـوم يـوم قتـــال

آه لمـــا حُمِّلتُـــه في حبّـــه من لِين معطفـــه وقـــوة قلبـــه
ألِف الصـدودَ فـلا سبيـل لقربـــه أمـي وأُصبـح مغرمـا صبّـا بـه
فـإني الحُشـاشـة وهـو خلْوُ البـال

أسكنتـه صـدري فتـاه ومـا ارتضى وقضى بهجري فـارتضيت بمـا قضى
ووهبت روحي أبتغي منـــه الرضى وبـذلت نـومـا جفنُـه مـا غمّضـا
ألا لكي يحظى بطيْف خيـــــال

---

9) من معاني الخال : الفؤاد والرجل الضعيف، وهما أنسب المعاني بالخال هنا.
10) الجريال : الخمر.
11) تبع ما يجري على الألسنة، والصواب مهيب.

يــا شــادنــا في العــاشقين محكمــا احللتَ من سفـك الـدّمـاء مُحرّمـا
فَـوَّقْتَ من الحــاظ جفنـــك اسهُما وقتلتَ نفــــاً في الهـــوى فكأنّما
سلّطْتَ ألحــاظـــا على الآجـــال
مـا ضر لـو رحم الغريـقَ بمُـزنِـه أو لـو شفَى يَعقُـوبَـه من حُـزْنـه
جـمي تـساوَى في الـقـام بجَفْنِـه. سُبْحَـان من فتنَ العبــاد بحُسنـه
وقضى لجسمي فيــه بــالإعـلال

أرقام لأَشعار في الأَوراق، وأرقامها في الديوان

رقّمت أشعار هذه الأَوراق بحسب ترتيبها فيها من واحد إلى 33، قصْد مقابلتها بما في الديوان، إذ كانت الأَشعار فيه مرقّمة أيضاً، ومن فوائد ذلك معرفة المحتوى الشعْري الذي تضمنتْه كما قلت سابقاً، وهذه هي تلك الأُرقام مسلسلَة من 1 إلى 33، ما عدا أرقام الزيادة طبعاً، وما يقابلها في الديوان :

1 : 59 ـ 2 : 114 ـ 4 : 120 ـ 5 : 106 ـ 6 : 126 ـ 7 : 8 ـ 8 : 10 ـ 9 :
60 ـ 10 : 63 ـ 12 : 62 ـ 13 : 34 ـ 14 : 15 ـ 16 : 9 ـ 17 : 103 ـ 18 :
30 ـ 21 : 27 ـ 22 : 122 ـ 23 : 28 ـ 24 : 104 ـ 25 : 109 ـ 26 :
49 ـ 27 : 84 ـ 28 : 115 ـ 29 : 19 ـ 30 : 20 ـ 31 : 45 ـ 32 : 85 ـ،

التصحيح وتعدّد النُّسَخ

بعد ترقيم أشعار الأُوراق أجريْنا مقابلة بينها وبين نظائرها في الديوان، فتبيَّن لنا أن بين بعض ألفاظها اختلافاً، وفي البعض الآخر تصحيفاً، ونحن نثبت ذلك فيما يلي :

الديوان 59 رأيت ظبـــاء المسْـــك لا تخـزن المسْكا
الأوراق 1 رأيت ظبـــاء المســـك لا تمنـع المسكا
الديوان 114 : ويقـــدح في الأحشــــاء نيران أشــواقي
بعد بيت تحن إلى الخيرى 106.
في الأوراق زيادة هذا البيت :

وما أسهر الظلماء إلا لعلة لينشقني الخيرى من نشره عرفا
الديوان 106 ولا منصفى يــدري خـلاف اسمـه حرفـا
الأوراق 5 ولا منطقي يــدري خـلاف اسمـه حرفـا
الديوان 106 : ولــولا حيــاتي واتقــائي محلــه
الأوراق 5 ولــولا حيــاتي واتقــائي بخلــه
الديوان 126 : فنصّ لي لحظـــــه الأمراض والعلـــلا
الأوراق 6 فقصّ لي لحظـــــه الأمراض والعلـــلا
الديوان 126 : لــو كان ينضــح من مـــاء اللمى نصــلا
الأوراق 6 لــو كان ينضــح من مـــاء اللمى نهــلا
الديوان 126 : شــوقي إليـــك ولا كلفت شــوقي قـــد
الأوراق 6 شــوقي إليـــك ولا حملت شــوقي قـــد
الديوان 60
والأوراق 9.

جاء في طرّة هـ البيت :

سامحت في سفك دمي باخلا برَشْفة من ريقه الـلـل

ما يلي : باخلا منصوب بإسقاط الخافض تقديره لباخل سامحت في سفك دمي، فهل أبخل من هذا «المسامح» بفتح الميم الثانية، ولا يخفى ما فيه من التكلّف، وكان يصحّ

هذا التقدير لو كان الفعل «سمحت» ؟ في الديوان، ولكن الديوان ليس فيه باخلا بل راضيا فهو لا يحتاج لهذا التقدير.

الديوان 60 أحـن من عصر الصبـــا المقبـــل

الأوراق 9 أحـن من غصن الصبـــا المقبـــل

الديوان 60

شاكي سلاح القد واللحظ في حرب شبجٍ عن صبره أعزل

الأوراق 9

شاكي سلاح القد والنهد والـ ـعينين في حبّ شجٍ أعزل

الديوان 60 منـلب الحيلـــة والصبر لا

الأوراق 9 مـتلب الحيلـــة والصبر لا

لكن سقطت منه الحيلة.

الديوان 63 ألا هـوى ردّ حقي عنـد بـاطلــه

الأوراق 10 ألا هـوى رد حقي عبْـد بـاطلــه

الديوان 63 وحـاجتي فيــك بين اليـأْس والأمـل

الأوراق 10 وحـاجتي منــك بين الخـوف والخجـل

الديوان 34 وخـط بصـدغـه للحسن واوا

الأوراق 13 اخـط بصـدغـه للحسن واو

الديوان 9 ظمئت منــك لـوعـد

الأوراق 14 ضحيت منــك بتمس

الديوان : 103 ولا يحمـل حلم الضعفـا

الأوراق 17 ولا يحمـد حلم الضعفـا

الديوان : 103 مـا كنت موصـولا فـافـكّ عصر وصـل سلفـا

الأوراق 17	مـا كنت مـوصـولا فـابكي عصر وصـل سلفـا	
الديوان 85	بقبلـــة نـكي انــــه وجهـــك الحـن	
الأوراق 32	بقبلـــة نسكي انهـــا وجهـــك الحـن	

بعد أن كتبتُ هذا المقال بمدَّة، اطَّلعت على العـدد التـاسع عشر من مجلَّة «حوليـات الجامعة التونسية» الذي صدر أخيراً وهو عدد خاصّ يحمل عنوان أشعـار لابن سَهل الإسرائيلي من إعداد الأُستاذ محمد قوبعة، أشار فيه إلى مخطوطات ديوان ابن سهل الموجودة في تونس، وضمَّنه نصَّ كتاب المتنع السَّهل في ترجمة وشعر ابن سَهْل للرّاعي النحْوي الأندلسي، وقد قارن هذا الكتاب والدواوين الأُخرى بمطبوعات ديوان ابن سهل، وخرَّج بزيادات من شعره على محتوى الدواوين المذكورة.

وكذلك قمنا بمقارنة مع هذا العمل الجيِّد، لأَشعار النبذة التي قدمناها من شعر ابن سَهل، فوجدناه يتوافق وإياها في ثلاثة أشعار، وهي رقم 11 ورقم 20 ورقم 33. ويبقى من فائت شِعْره، على مختلف الدواوين، وهذا الذي احتواه عدد مجلَّة حوليات الجامعة التونسية التاسع عشر ثلاثة أشعار، امتازت بها هذه النبذة وهي الواقعة تحت رقم 3 ورقم 15 ورقم 19.

أما الخلافات اللَّفظية في الأَشعار الثلاثة التي يتوافق فيها العمَلان فقد استدركناها في التعاليق بعلامة(☆).

بقي أن نشير إلى خطإ نسبة الأَبيات الأَربعة التي أوَّلُها : «وقف الهوى»، في حيث آنت الأَبيات، إلى ابن سهل، فهي من شعر أبي الشيص الخُزاعي كما في ديوان الحماسة وغيره، وأن صواب البيت الرابع منها هو :

وأهنْتني فأهنْت نفسي صاغرا ما من يهون عليك ممن يكرم

والكمال لله.

الفهرس